رواية

@ketab_n
Follow Me
3.6.2015

فاطمة عبدالحميد

حافة الغصّة

@ketab_n
FOLLOW ME

طوى

فاطمة عبد الحميد

حافة الفضة

طوى
للنشر والإعلام

Twitter: @ketab_n

فاطمة عبد الحميد: حافة الفضة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Book: Hafat alfeda
الكتاب: حافة الفضة

Author: Fatima aabed alhamed
المؤلفة: فاطمة عبد الحميد

Cover plate:
لوحة الغلاف:

First Edition 2012
الطبعة الأولى ٢٠١٢

All rights reserved
حقوق الطبع محفوظة©

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE,LONDON,NW2,UNITED KINGDOM
Email: tuwa@londonÁcom
TEL: 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع: **منشورات الجمل**
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2012
Postfach 1127 Á 71687 Freiberg aÁN Á Germany
WebSite: wwwÁal-kamelÁde
E-Mail: alkamelÁverlag@gmailÁcom

All rights reservedÁ Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher

Twitter: @ketab_n

«يضيق الجلدُ عن نفسي وعنها . . .»

المتنبي

Twitter: @ketab_n

أنا لست منظراً، تنظر إليه حيناً ثم تنصرف، أو تغمض عينيك عنه فيختفي، أنا حقيقة ماثلة، سواء واجهتها أو أدرت لها ظهرك، لا تتغير.

لذا عليك الآن أن تتلوث بي، من قدميك حتى أعلى مكان تفترشه الشمس فوق رأسك، لتعرفني جيداً.

أعلم أنني قد عشت هذا كله من قبل، ولكن متى!؟

لم تكن لجين تختلف عني كثيراً، غير أنها بالطبع ليست أنا، هي أشبه بسكين فاكهةٍ بمواجهة صلابة البصل، فهي أكثر رقة ومحاكاةً للصدق والنقاء، بينما أنا وجه العملة الآخر، ولكن مهلاً... ليس بالضرورة النقيض!

من فينا ابتكرت الأخرى؟ ومنذ متى وهي معي تسكن خطواتي؟ وهل لها نفس تاريخ ميلادي؟ لا أعرف.

ولكن، بحسب ما يؤكد طبيبنا النفسي، لا ينطبق علينا حرفياً (اضطراب الشخصية المتعددة)؛ لشدة ما نكن الود والاحترام لبعضنا البعض.

حين تمددت، على تلك الأريكة، في عيادة الدكتور سعد، جالت بخاطري كل تلك الأفلام التي شاهدتها...

المشاهد التي كانت تتعلق تحديداً بجلسات الحوار بين المريض وطبيبه،

Twitter: @ketab_n

الحجرة المصممة كقطعة من لوحة زيتية تنتمي للقرن الثامن عشر، والتي تكاد تهدهدك لتغفو أمام شاشة التلفاز لدفء الألوان و حميميتها. النافذة الزجاجية التي تطل على فناء مزروع، أو جسر خشبي ينسكب عن شفتيه نهرٌ يخترع سمكاً يقفز عكس التيار. . . لن أشتط أكثر بخيالي، فأنا في جدة على كل حال!

أؤكد للجميع أن الأفلام تبقى أفلاماً لا علاقة لها بالواقع، و أن الدكتور سعد عصبي، ويتردد كثيراً قبل أن يشرح لأمي شيئاً يخصني، وهو لا يجيد صياغة الجمل، ويعبث في شامة تحت فكه السفلي حين أقلب السؤال عليه، فيتحرج من ضعف منطقه.

وجهه مضغوط وكأنه انعكاس في مرآة على شكل قارورة ما.

لذا لا تنتظر أن يهرول إليك الانطباع الأولي المريح الذي يتحدث عنه الجميع، كما أنه لا يشبه الأطباء النفسيين الذين يظهرون بطباع هادئة وإجاباتٍ تبدو وكأنها حفنة عن تجارب الحياة. لم يكن كلامه حتى كالحكم المدونة في ذيل أوراق التقويم الهجري. . .

أعود وأكرر أن ما في الأفلام يبقى أفلاماً.

وهذا ما يفسر لي أيضاً الأسعار الرمزية في تلك العيادة، قياسا لما نسمع به عن عيادات الطب النفسي، وأقول نسمع لأنني لم أجرب غير هذه العيادة الحقيقة.

أنا لا أتهكم، ولكن أعني مثلا:

كيف يقفز من سؤالٍ إلى سؤال، دون أن ينتظرني لأنهي بكائي، فقد كنت أنتحب منذ جلست في غرفة الانتظار الخاصة بمرضاه!

Twitter: @ketab_n

لعله سمعني أو حتى (نوتت) له الممرضة بتلك الملاحظة، ودست الورقة تحت ملفي الأصفر الجديد، فهي كانت تحدق طوال الوقت، حتى أنني تذكرت مديرة مدرستنا في المرحلة المتوسطة والتي كانت تجعلنا نكف عن البكاء، المذنب والمظلوم على حد سواء، بنظرة واحدة فقط!!

كما أن عصبيته أثناء بحثه عن قلم، عوضاً عن الذي جف ريقه بين أصابعه، تجعلني حذرة فيما أقول، فيتحول كلامي لقمةً كبيرةً، ألوكها مراراً قبل أن أقذف ببقاياها على مكتب الدكتور سعد.

Twitter: @ketab_n

ـ إذاً. . . كل هذا النشاز في حياتك بسبب أن لك شخصية ثانية؟

لم يكن سؤال (داليا) مستغرباً، فهكذا هي دائماً (دفشة) تلقي بالكلام على عواهنه، ولا تحاول أن تنسقه أو تهذبه بما يتناسب وطبقة الأذن المتلقية، وهذا لا يعود لكونها شخصية تعتمد الصراحة مبدأ لا حياد عنه. . . لا! هي فقط هكذا بدون تخطيط مسبق.

ـ أمممم. . . . ليس بالضرورة نشازاً يا داليا!

ثم إن الطبيب يقول أن لجين لم تتسبب لأحد بالأذية أبداً، فمثلا هل صادفتها يوما؟ هل صدر عنها (عني) ما يثير قلقك وريبتك؟ هي (شخصية نت) لا تظهر إلا أمام شاشة الكمبيوتر.

ـ أفهمتِ شيئاً؟

لم أنتظر أن يتوقف رأسها عن التأرجح، منذ سؤالي لها إن كانت لجين تسببت لها بأي أذى. بالطبع عرفت أن الرأس لن تتوقف عن الحركة يميناً وشمالاً، فهي الآن تعيد شريط لقاءاتنا منذ عرفنا بعضا، وتفتش عن وجه لجين في الصور والمواقف وأمام الأبواب وخلف النوافذ. . .

تماماً كما كنا نفتش عن وجه القزم (فضولي)، المختبئ في لوحة مكتظة بالوجوه والأبنية والسيارات، في كل عددٍ من مجلة ماجد

Twitter: @ketab_n

الأسبوعية.

بطاقة الطبيب تربكني، ربما هي جملة «عيادات الكادي» للطب النفسي.

ربما اختار الكادي لأنه يتفسخ أضلعا وأوراقاً لكل منها مركزها وعطرها. ربما هو متخصصٌ في فصام الشخصية: شخصيتان.. ثلاث.. أربع.. هو الكادي المتعدد الأوراق إذاً!

ولكن ماذا لو كان مريضه مصابا بالكآبة أو الوسواس القهري؟! أين الكادي هنا؟

رأسي يمتلئ أفكاراً، والطبيب بلهجته البيضاء التي تجعلني أفتش مكرهةً عن إقليميتها طوال الوقت، يصر علي بالتدوين، والعودة دائماً لفكرة (المذكرات) التي كنا نفخر بدفاترها الملونة، وذات الروائح العطرة...

ـ سأعرف متى وأين أوقف لجين عن الظهور، وذلك ما أن أصل لمسقط الألم.

لجين تجيء في الهمس، في الكلام سراً، حين أكون بمفردي.

تقول أمي لأبي، إنها سمعتني منذ أشهر أقول أثناء مسحي للبوتاجاز في يوم المطبخ الخاص بمنزلنا، والذي يعود دوري فيه كل ثلاثة أيام بالتناوب مع أخواتي رنا وعبير:

ـ وأنا يا أحمد أحبك أكثر، ولكن هذا الزواج صعب... صعب جداً ومعقد!

وتقول أنها سمعتني أيضاً أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ «يلا . . . لو كنت صادق تعال اخطبني من (تيته) . »

تيته!!

أنا حتى لا أستخدم هذه الكلمة أساساً! أقول جدتي، ولكن المشكلة الأساسية ليست (تيته) أو جدتي، المشكلة أن جدتي ميتة منذ كنت في العاشرة!!

ـ الغي دورها في المطبخ، إن كان يدفعها للسرحان و اختلاق القصص هكذا، الغيه . . . ماذا تنتظرين؟

ـ تم يا أبو عبد الله . . المطبخ من اليوم مقسم بالتناوب بين عبير ورنا فقط، وفضة تلتزم بشغل البيت .

أعادت أمي تشكيل هرم الأعمال المنزلية . . . الحقيقة لا أعرف من المستفيد من هذا التغيير؟

رائحة القهوة تشعرني بالبكاء، في الفترة الحالية علي أن أخفف من المنبهات لأنام . حين يقول الدكتور تخفيف، فهذا قطعاً بالنسبة لأبي واجب لا مجال للتفكير في كونه مستحبا أو جائزا، يجب ألا أشرب القهوة وحسب، ومع ذلك لا أنام .

لم أشعر بلجين أبداً، ربما لولا الاتصالات التي جاءت في البدء في وقت متأخر من الليل تفتش عن الحبيبة لجين وبلهجة مصرية (لُقين) .

وربما أيضاً لولا تلك الصور التي جاءت فيما بعد إلى هاتفي، وتحمل صوري بملابس نوم احتفالية لما حدث هذا كله!

و ربما لو كنت غيرت رقمي فقط، بعد رسائل التهديد تلك التي

Twitter: @ketab_n

كانت تبدأ بـ:

ـ قولي لبنت عمتك. . . !!

لما حدث شيء من هذا.

إذا لجين تعرفني شخصياً! تقدمني ورقمي للآخرين على أني ابنة خالها، وهي ابنة عمتي.

تورطني وتستخدم رقمي كما استخدمت جسدي. . ولكن إلى أي حد استخدمته؟

وقتها، ظننت حقاً أنها ابنة عمتي، لذا لم أتردد لحظة في أن أُدخل أبي في تفاصيل هذا الموضوع.

بدأت الرسائل تنهمر قبل دخولي إلى عيادة الدكتور سعد بأشهر، وبشكل مهذب جداً. . . مثلاً:

لمَ لم تتصل لجين؟ هل وصلت مصر. . . طمئنيني عليها أرجوك؟ أين تقيم هي وإخوتها وجدتها؟ لجين وعدتني أن نلتقي في سوق (city stars) في ذكرى تعارفنا، ومن ثم تأخذني لجدتها لأخطبها منها. . . أين هي الآن؟

في البدء كنا نضحك أنا وأخواتي، ونكتفي بالرد عليه بعلامات استفهام، ثم حين تذكرنا الفاتورة، وجدنا أننا يجب أن نُطلع أبي على

Twitter: @ketab_n

هذا، قبل أن يسأل عن سبب وجود الرسائل الدولية في هاتفي، خاصة وأنه يتفحص هاتف كل واحدةٍ منا، ويدقق في كل رقم صادرٍ، وكم مدة المكالمة لهذا الرقم، وزمنها، فتصرفت كما تربيت، وأشهدت أبي على تلك الرسائل الغريبة.

كان الغضب يدور بأبي في أنحاء البيت، هَاتفَ الرقم المتصل... الرد جاء غريباً من القاهرة! كان أحدهم سعيداً كمن استعاد كنزه، رحب قليلاً قبل أن يقاطعه أبي ويصب عليه مسميات تضيق عنها معاجم اللغة...

ثم يذيلها بتحذيرٍ وهو يلتقط أنفاسه:

ـ إياك ثم إياك أن تتصل بهذا الرقم مجدداً...

ـ لا... سأتصل مرة وأخرى أنا (عايز مراتي.. لجين) قالها بلهجته وبغضبٍ لا يقل عن غضب أبي. عرفت هذا من عيني أبي اللتين كادتا أن تسقطا خارج جفنيه لحظتها.

انتقل أبي من نارٍ إلى نار حين جاء اسمي عارضاً في المكالمة، وبدا كمن يقضم اللوز تحت فكٍ محكم الغلق، وهو يكز على أسنانه.

أشفقت على الآخر في طرف المكالمة، فهو لا يجيب بقدر ما يتساءل فقط. كنا نسمعه، لأن أبي يضع الجوال على الـ (سبيكر)، فهو لا يطيقه ملتصقا بأذنيه، وخاصة في لحظات الغضب!!

كان يحدث أبي وهو يسرع في الكلام، ذوقاً منه ومراعاة لكون المكالمة دولية، ويجب أن يختصر ويأتي بالمفيد فقط:

ـ أنت خالها... أنا أعرف، أنت والد فضة؟ لجين ابنة أختك تحب ابنتك وتحبك كثيراً، وحدثتني عنكما كثيراً، ولكن أين لجين زوجتي،

Twitter: @ketab_n

هل وصلت مصر؟ من المفترض أن نلتقي، نحن عموما قرأنا الفاتحة في (الإيميل) يا خالي. (هو يقدم نفسه فرداً من العائلة الآن!!) أنا وهي أشهدنا الله على زواجنا!! ولي كذلك صديقان في (الشات) كانا شاهدين على زواجنا أيضاً.

وأنت في بلاد الحرمين، وتعرف ربك، وإذا حضر الله بين اثنين فهذا خير شاهدٍ. أم أنك ترى أن بشراً يستحق أن نلتزم أمامه بوعدٍ أكثر من الله؟

الحوار يمس تدين أبي، ويبدو أن أبي لم يفهم منه شيئاً، فالرجل يسرع في الكلام، وأبي يهدر الوقت بتجهيز الشتائم، ومع ذلك لم يثنه هذا التوهان عن أن يستجمع بصقه قوية ينهي بها هذه المكالمة.

حاولت جاهدة يومها أن أعرف أيا من بنات عماتي، تلك التي عاشت وعيشت المسكين كذبة بهذا الحجم!

بدأت ببنات عمتي صالحة... الأربع متزوجات، ولهن وظائف حكومية، من ذلك النوع الذي يدفعك للنوم عند العاشرة مساء، والنهوض في السادسة صباحا.

أمممم... لا أظن أن إحداهن قد يتسنى لها الوقت، لكي تعيش حباً إلى جوار زوجها! بالإضافة إلى وجود رُضع ملتصقين بصدورهن في كل عام تقريباً.

لا.. لا.. هن بالفعل خيار مستبعد.

إذا بنات عمتي شريفة، هن أكثر ارتباطاً بالإنترنت، والأوفر جمالاً. ولكن من هي لجين من الست بنات؟

Twitter: @ketab_n

اتصلت (بداليا) لأستعير كل ما لديهم من مسكنات الصداع، بعد أن استنفذت ما لدينا، ولتساعدني في عملية الربط والتحليل.

جاءت مسرعة، تحمل عصير (باريو رمان) و (برنجيلز) أجمل ما يؤكل، وفمك يثرثر. توصلنا قبل إنهاء وليمتنا إلى نتيجة مفادها أن لجين هي سحر ابنة عمتي، والأخت المطلقة الوحيدة، وإضافة إلى وصمة الطلاق، فهي حصلت على دورة (ICDL) في الكمبيوتر، مما يعني أنها متمكنة من خوض تجربة غرام دولية، وحب صاخب ومقنّع على الإنترنت.

لا أعرف لمَ كنت أشعر في داخلي بأن سحر لا علاقة لها بالموضوع، وأن ما نحاول فعله أنا وداليا هو قضاء وقت ممتع، نضحك فيه، ونحكم ربط رأسي، كيما يستكين من الصداع، ونزيد عليه في هذه الليلة من التحليل والربط، والتسلي بقصة لجين وأحمد.

كنت أتساءل طوال الليل الذي قضيته أروض صداعي: لم على عاشقين أن يقحماني في قصتهما؟ فأنا مجرد فتاة على هامش الحياة. . . ماذا يمكن أن أملك لهما؟! ربما كلمات كالهواء خفة. هل توقعت مني لجين أن أصلح بينهما، حين يحتاجان لحكم من ذويها وآخر من ذويه؟ لا أعلم حقاً جدوى وجودي بينهما.

قضى معي حازم ساعة واحدة من ليلي الطويل، ومسكن الصداع يعمل كطرفة، عبثاً يستقرىء موطن صداعي، ثم غادر برفقة أصدقائه إلى أحد المقاهى.

توسلت أن يبقى فعقرب الساعة اتخذ الواحدة داراً، وأخواتي غرقن في

Twitter: @ketab_n

النوم، وأنا لا يبدو أن لي مرساة نومٍ هنا.

حين غادر حازم موصداً باب الشقة خلفه، تاركاً باب غرفتنا نصف مفتوح، ويطل على غرفة جلوس معتمة تماماً، طفا على وجهي شعور المسجون... فبمجرد أن يدير زائره ظهره يعود للسجن، لمنفاه، مصادراً يتوسد الذكرى ويشطب الأيام ويغمض عينيه ليرى ماذا يمكن أن يكون بالخارج، أما الزائر فمسرعا يخرج ليتحرر من اللازمن، ومن العتمة ورائحة الصدأ.

وكيف ألومك إن عدت متأخراً يا حازم؟! فالبيت ممل ويصيبك بالموت، بلا شك، كما يصيبني الآن.

أبي يوبخنا بشدة إن وجد إحدانا تسهر وحيدة أمام شاشة التلفاز، أو تقرأ مجلة في وقتٍ متأخر كهذا، أما إن وجدها تتحدث على الهاتف فهذه كارثة أخرى.

ولكنه لا يكترث إذ وجد إحدانا تحلم وهي جالسة، مهما ملأت القبعة بالأحلام، ومهما مد يده وتناول حلماً بالقرعة، لا يكترث ما الحلم ومع من كان، ولا يهتم أبداً بملاحقته، ربما يقيناً منه بعدم وجوده، أو لأنه يعلم أن موارد أحلامنا شحيحة أساساً.

Twitter: @ketab_n

في وقت الصباح، كان الضجيج في الخارج عالياً، رغم أن مكيف غرفتنا ذو أزير يشبه صوت حيوان مفترس يحتضر، ولكن الصوت أعلى هناك.

حين فتحت عيني، كانت عبير تقف جوار سريري، وتحدق بي في ذهول! لم أكترث في البدء، تجاهلتها وأدرت ظهري لها أيضاً، والتصقت وجها لوجه بالجدار الموازي لسريري تحت النافذة وقلت:

ـ لو أنك ترين وجهك من هنا، لعرفت ماذا أحتمل في هذه الغرفة بهذا الصبح اللعين!

عبير حساسة جداً، ترسم بالفطرة، تحمل قلم رصاص وتتقاسم مع الأوراق البيضاء قصةً رقيقة بالأسود.

ترسم كرسومات الكرتون المدبلجة بالعربية، الأبطال في وسط الصفحة وعلى يسار كل رأس دائرة تضع فيها الحوار المناسب مع الصورة. تكتب قصصاً بدون رقابة، كعناق بين شاب وفتاة، تأخذ أفواههما بزاوية الورقة وترسم لهما قبلة في لقطة جانبية، ثم تستعين بلون وردي ترسم به خجلاً يتطاير فوق وجنتي الفتاة.

رسوماتها دائما تتعلق بقصص حب في ريف لا يشبه ريفنا في

Twitter: @ketab_n

الجنوب، ريف أوروبي تركض فيه عربات وخيول ضخمة بلا سروج، أو تطل برؤوسها من حظائر صامتة، تأتي كخلفية لحوار بين بطلة وبطل غالباً هما أكثر ما يرسم في كراستها بعناية.

أما الأصدقاء والأمهات والآباء فترسمهم بشكل سريع، وأحياناً لا تكمل أجسامهم، فتكتفي برسم وجوههم بكعب الصفحة ويبقى الجسم خارج نطاق الورق... ولنا نحن جمهورها أن نتخيل التكملة مما سبق من الصفحات في كراستها.

وفي كثيرٍ من الأحيان تسمح لفرح بتلوين الأصدقاء، الأصدقاء فقط! عبير لا يجدي معها خوض أي مؤامرة أو حيلة على أمي، لأنك سترثي الكذب حينها.

عن غير النقاء عبير عاقر، لا تلد إلا شفافيةً وبياضاً، وبالمناسبة، الليلة ستكذب كذبة حية وستعيش الكذبة لأول مرة... ولأجلي!

التفت إليها لأستدرك ما قلت...

ـ كنت أمزح معك على فكرة.

لم يعجبني صمتها، فأنا بطريقتي هذه أعتذر، وهي كما يبدو لا تقدر ذلك!

التفت إليها لأعرف ما خطبها، ولكنها بادرتني بتجاهل وهي تلتفت جهة الباب، لتراقب ما يحدث خلفه وكأن فجوة هناك، وتحني رأسها لتقترب من وسادتي، وعيناها تسرقان الآتي من الباب:

ـ أرسل صورك! المصري أرسل لأبي على الهاتف صورا هذا الصباح، إنها صورك، إنها أنتِ أقسم بالله، تضعين شعراً مستعاراً، وعدسات

Twitter: @ketab_n

لاصقةً، وحاجباك كثيفان، هما جميلان ولكنهما ليسا كحاجبيك هذين. . . . لا أعرف كيف أصف هذا ولكنها. . . هي أنت يا فضة.

لو أن عبيراً تذكر كيف كان يسعى الفزع في قلبي حينها، لعانقتني الآن لتكفر عن تلك اللحظة.

بكل تأكيد أمي الآن تحولت جبلاً ممتدا بالعرض ليحاصر باب غرفتنا، وبكل تأكيد سيجرف أبي الجبل، وسيدخل حاملا الموت معه في أي لحظة.

ملامح الرعب والحذر والصدمة التي عجنت وجه عبير، هي زوادة وقتي ريثما يجيء أبي.

ملامح متحاذقة التصقت فجأة فوق وجه عبير، لم تمنحني وقتاً لأتأملها، فقد قفزت قرب الباب وكأن شيئا ما قرصها في الغرفة، حاجباها خارج نطاق رأسها فرحاً بما وصلت إليه، وهي تقول بصوت مسموع:

ـ اغلقي الباب خلفي!

صوت عبير حاد وبإمكانك أن تميز أنها توزعه الآن بالتساوي بين أمي وأبي، ولكن من الصعب التقاط مسار كل الأحرف بشكل صحيح. لعبة تخمين الحوار في الخارج تفيد في تقطيع الوقت بدرجة لا تذكر، عوضاً عن التفكير في أبي ووسائل القتل المحتملة.

الموت في أكثر حالاته تبختراً يأتي بحقائبه الفارغة. . . أعني: يعطيك فرصة أن تعرف بقدومه، كأن يحترق البيت ويحاصرك الدخان، أو أن تعي تماماً حادث سيارةٍ، وتكون مربوطاً إلى المقعد، بينما السيارة تقدم

Twitter: @ketab_n

عرضا في الهواء، أو كهذه الحالة التي لا يفصل بيني وبينه إلا جسد أمي وبعض أخواتي الصغار، و أكرة باب أنيقة وهشة، ومسافة خمس خطوات عن سريري!

الجلبة في الخارج تهدأ. . تهدأ تماماً، حتى وأنا ألملم شعري وأشد وثاقه عالياً. . . لا أُميز أي صوت أو همهمة هناك.

Twitter: @ketab_n

يصيبني الذعر من التصنت على الأبواب، لا أعرف أهي أفلام الكرتون التي شغفت بمتابعتها في صغري وحتى الآن، أم خيالي الذي يصور لي دائما جسدي ملتصقا بالحائط خلف الباب، ورقبتي بعكس اتجاه جسدي، ويديّ مصلوبتين، ودائرة من عصافير تحيط برأسي، إثر يدٍ تفتح الباب بقوة فأطبع بدوري خلف الباب مباشرة!!

رنا في الصف الأول الثانوي، تصغرني بخمسة أعوام، كثيراً ما أظن أنها أكثر نضجاً من أمي حتى، ذبلت مراهقتها قبل أن تبدأ. بإمكانك أن تناقشها بأشد الأمور وأحدها، وترد عليك برأيٍ سديدٍ ومقنعٍ ويبقى فمك مفتوحاً، إزاء حزمة الصوت الرخيم الصادر عن تلك الحنجرة.

أذكر جيداً حين حملت أمي بها، فقد كانت تنهانا ونحن صغار عن أكل بذور التفاح عقب كل تفاحة نقضمها، معللة هذا بأن البذور ستتحالف وتجتمع على الشر في بطوننا، وستنتفخ مع شربنا للماء، وستغدو لغزاً يعجز عن حله جميع الأطباء.

أقلعت عن أكل التفاح لشدة ما حاذرت أن أبلع حباته السوداء بغفلة مني، وانشغلت بتحذير حازم وعبير أثناء أكل التفاح، وأهدرت وقت لعبي بمراقبتهم.

Twitter: @ketab_n

حين حملتْ أمي برنا، لمت نفسي على ذلك كثيراً. . .

مزهرية سنابل طائشة تقف كشاهد قبر في الصالة، كانت أمي تهرب عن ضجيجنا خلفها، تأكل تفاحة أو تمشط شعرها وهي شاردة. حمّلتُ نفسي وزر عدم مراقبتها، وأنني بانشغالي عنها بمراقبة الصغار، تركتها تأكل بذور التفاح لينتفخ بطنها!!

هذا الصباح عندما عبرتْ رنا الباب، كنت متأكدة أن أبي من أرسلها، لأنه يعتمد عليها في كل صغيرة وكبيرة، حتى حين يسافر إلى الرياض لزيارة أعمامي هناك، فإنه يفضي لها ببعض التعليمات تاركاً قبلها أختين أكبر منها سناً، وعلى رأسيهما الأم شخصياً.

أمام أبي وقفت برئة واحدة، ومتأكدة أنني كنت أرتجف كثوبٍ وحيد على حبل غسيل. ما يربكني الآن أكثر من عض أبي على فكيه قبل أن يأكل لحمي، هي نظرات أمي وهي تجوس في جسدي، تبحث عن ما يشبه لجين ربما؟ تحدق في صدري، وتميل برأسها قليلاً وتنظر خلفي! ترى هل تظهرني الصور من كل هذه الاتجاهات؟

ـ في هذا الهاتف صور يندى لها الجبين، وهذا المصري يصر أن لجين زوجته، ويصر أن الصور هذه تخص لجين. . . ولجين يا فضة هي صورة مطابقة لك تماماً في هذا الهاتف، وهذه ليست مصادفة بالتأكيد!!

ينظر لأمي وينتزع نظرة إعجابٍ على ذلك الهدوء المزعوم، والذي تلح أمي دائماً على أن يتخذه طريقاً للحوار، قبل أن تهرع يده للعقال أو الأشياء المحيطة به كعادته، لأن هذا ينفر الأولاد، ودائما ما كانت تلوي يده (مجازاً طبعاً) وتقول:

Twitter: @ketab_n

ـ سيهربون يوما ما من أسلوبك هذا في التربية.

وكثيراً ما تختم كلامها هذا بقولها:

ـ وتخيل أن التي تهرب إحدى البنات الخمس؟

قدماي تجلداني، وقوفي طال كثيراً، وإجاباتي تنحبس سريعاً، فلم تزد عن:

ـ صح، والله، وأكثر، ومضبوط...

وكلها تعقيب على عبير وهي تشرح ماذا يفعل الملك (فوتوشوب) في الصور المغلوب على أمرها تحت سلطانه!

ولكن السؤال الأهم كيف وصلت الصور له أساساً قبل أن يسلط عليها بطش الفوتوشوب؟

عدنا إذاً إلى حيث بدأنا! أمي تقول أن بنات عماتي يحقدن علينا وعليها، وأننا غير مرحب بنا في العائلة، ومحل نقد دائماً.

أبي يطرد عن شفتيه الظمأ بلسانه، فقد تحدث اليوم كثيراً، وينفي عن بنات أخواته صفة كهذه، فهن متزوجات وموظفات وأمهات، فعلى ماذا سيحقدن على أمي أو على بناتها!!

أبي يعلن أيضاً أن أمي تتهكم، وقد تكون إحدى بنات أخواتها من ورطتني وصوري في هذا، فهن ضعيفات دين، مائلات للاستعراض ولفت أنظار الرجال.

يفرد كفه الأيسر، ويعلق سبابته اليمنى فوق الخنصر الأيسر ثم البنصر ثم الوسطى، وهو يعدد المطلقات في عائلة أمي:

ـ شوق، سعاد، بدرية!!

Twitter: @ketab_n

يعلو صوت أمي وهي تفسر زيجة وطلاق كل مطلقة من بنات أخواتها سيئات الحظ. وبين صوتيهما يتربع الهاتف بين كفي، وجسدي!! وصوري تبدو سعيدة بعريها، يخفي جمال الجسد شعرٌ طويلٌ يمر في كل اتجاه ليرجم الستر!

هو ليس شعري ولكن كل ما تبقى هي أنا! نفس شامتي الراسخة في بطني، صدري شحيحٌ لكنه هنا، نفس طريقة جلوسي مقابل (اللاب توب)، أنفر من حرارته على فخذي، فأضع تحته وسادة عسلية، يظهر طرفها في الصور، إنها أنا بلا شك، وهي أنا السعيدة والمختالة بهذا الجسد، الذي ظننت أنه سر بين خالقٍ ومخلوق، فإذا هو فضيحةٌ مدويةٌ.

الأهم من هذا وذاك، والذي أعرفه وتعرفه عبير أيضاً، أن هذه الصور لم تمسها فرشاة الفوتوشوب إطلاقاً!

Twitter: @ketab_n

بحلول السادسة مساءً، كان أبي قد عزف عن الأكل § غارقاً في خميرة الأفكار. إن لم يكن أبي جالساً على السفرة، فلا حاجة لنا بمدها لتسعة أشخاص آخرين في البيت، فكل منا سيدخل المطبخ، ويفتش عما يسكت به جوعه فحسب.

أبي كل البيت... ترى: من يعلم الآباء صناعة الهيبة والقوانين في البيوت؟ لم وحدهم بإمكانهم جعل اليوم كله فسحة تهرول خارج المنزل، ولم وحدهم يملكون حق خنق النهارات من أولها؟

بت أخجل من جسدي كلما وجدت الهاتف يتلوى بين كفي أبي، أسأل نفسي: أين منتهى الصور طالما هي تدور؟

يبدو أنه اتفق مع أمي على عدم إبلاغ إخوتي بما يحدث بيننا وبين هذا الهاتف من مداولات.

فرح وملاك أصغر من أن يفهمن ما يحدث هنا، فرح في الخامسة، وملاك لم تكمل عامها الثالث بعد، ولكنهما بالتأكيد قادرتان على نقل بعض التفاصيل الغير مفهومة، تحديدا إذا اجتمعتا معاً، بحيث تبدو كقطعة موزاييك، بإمكانك أن تلصق الكلام وتوصله ببعض، ليتكون لديك بعض جملة أو ما يشبهها:

Twitter: @ketab_n

ـ فضة لديها صور عارية في الهاتف.

كانت هذه العبارة أول ما يستقبلن به إخوتي الواحد تلو الآخر، يدلف أحدهم من الباب، ليقص شريط جملة العار من فم الثنائي الوشائي.

لا أعرف إن كان نضج الموت في عروقي، قبل أن يغمى علي أو بعده، يقولون الفضاء امرأة، ولكن أذكر أنني هبطت قريبة جداً من الأرض، وجهي طريق الأرجل وإطارات السيارات ومسامير الأبنية.

ثم حين صعد وجهي ليرتجف وحيداً، كانت ملامحي أصغر لأنها تنكمش فزعاً، شعري يتكسر في قبضته، لا صوت له ولكن أنصاف الشعرات التي تتناثر على كتفي تنبئني بهذا، أيدٍ كثيرة تتنازعني، ويد واحدة تقتلني. هي يد عبد الله أخي الأكبر.

أين ملائكة البيوت المضيئة من كل هذا؟

طعم الدم جرح ينز في فمي، رائحته لا تطاق، ولا عنق لي يقوى على حمل رأسي لأبصق بعيداً، فأبصق هكذا وحسب.

خيط الدم يتسلل خارج فمي وفوق ذقني، رأسي لا يقوى أن يبتعد عني ولو قليلاً حتى، لو أن أحدا يقطع سير الدم بمنديل ما قبل أن يصل إلى أذني، لتحملت ما ينسحب منه فوق ذقني!

صوت عبير الحاد يقاتل في الخارج، ونظرية الفوتوشوب ربما لا تنجح هناك. رنا تقف قرب الباب، وحين تسمع أنيني تأتي مسرعة، وتنقذني أخيراً من مسيرة الدم صوب أذني، تجمع المنديل براحتها، وتقترب من وجهي كأني جنين للتو تُكتشف ملامحه.

عروق عنقها نحيلة... هذا كل ما أراه. تركز وتتردد قليلاً: أين

Twitter: @ketab_n

تمسح؟ تعتمد على حدسها بملامحي قبل أن تعثر على طريق تظنه لن يؤلمني إن اتكأت عليه. ولكني كشوارع جدة أطفح ماءً و نتوءات وأفيض وجعاً، وكل خطى تلمسني تشوهني أكثر.

صوت عبد الله عالٍ ومدو وهو يقول: اسأل حازم كم مرة قالت إنها تحب اسم لجين، وكم مرة نقمتْ عليك لأنك سميتها فضة!!

مازلت عالقة معك إذا يا لجين!

صورها جميلةٌ، جسدها جميلٌ، هي أنثى أكثر مني. لا أعرف كيف أشرح هذا، ولكنها تجيد الجلوس بشكل مثير! بدا كل شيء حقيقيا وصلبا في تلك الصور، أكثر مما هو عليه تحت هذا القميص. هي أنا حين لا أكون خجولة، شعرها بدا حقيقيا... شعرها!! لو أنني أجد في هذه الغرفة الشعر المستعار، لتأكدت تماماً أنها أنا. همست لرنا، فاقتربت. قلت:

ـ جدي الشعر الطويل الأسود في هذه الغرفة، جديه فقط، لأعرف إن كان ما يحدث هنا حقيقة لا خيالا.

رنا تتعلق فوق الدولاب، تزحف تحت الأسرة الثلاثة، تتحول مشطا فتتخلل أصابعها المراتب و الشراشف، وملابسنا المطوية بإحكام فوق رفوف الدولاب، تقرأ أناملها كل جيب. تقول:

ـ لن أبحث في غرفة الصغار، فبالتأكيد ليس هناك أي شيء يخصك، أنت تفتحين جهازك هنا فقط.

ـ آهـ.. يا رنا!!

أنتِ تُقرين أنها أنا إذا! من غيري وغيرك في هذا البيت يُقر بهذا أيضاً يا

Twitter: @ketab_n

ترى؟

لفافة النايلون الشفافة أصدرت صوتاً حين لامستها أصابع رنا، كانت مخفية في ساق بنطلون جينز قديم، هو حتى لم يعد يناسب قياسي، مطوي بثنيةٍ واحدةٍ حذرةٍ، في داخل دولاب ملابسي. وفي مكان يضيق ويطول هكذا، يمكن أن تخفي شعراً طويلاً دون أن تمسه بضرر. فوق الجينز، مطوي إشارب حريري عريض، بلون بحري خفيف، يمكن أن يغطي جسدا كاملا ولكن لا يستره. وقلم كحل، وبودرة وجه رقمها (٥٥) بالكاد ميزنا الخمسة الثانية. إنها فاتحة جدا، هي حتى لا تناسب وجه عبير، والتي هي أبيضنا بشرة.

وجه رنا يشبه وجه المحقق كونان، حين يقبض على خيط يقودك للفاعل في جريمة غامضة. سحبت الكيس بحذر باتجاهي، وهي تحبو على الأرض جارة خلفها ساق البنطلون كفريسة قتيلة تتدلى عن فك مفترسها، وتحدق باتجاه الباب، مخفية معظم الكيس تحت السرير هذه المرة، وتقول: انظري. . .

الحقيقة أن عيني اليمنى كانت تصب دموعاً ملوثة، وكنت أشعر بجفني يحترق، وبأن غصن شوك يركض بين عينيّ. فأخفيتها بكفي لأتحقق بعيني اليسرى التي يزورها غصن الشوك حيناً، ويبتعد حيناً آخر لحسن الحظ.

ـ ماذا يوجد بعد في هذا الكيس؟

لم أنتظر جواباً. . . مددت يدي أقربه مني، لأستوضح ماذا أخفي بعيداً عن نفسي أيضاً!

Twitter: @ketab_n

الصداع هذه المرة لا يطاق، يمحو كل شيء في طريقه، ربما هو أثر ضرب عبد الله، وربما هو القلق. ولكن رغبتي في الصراخ تجعلني أتأوه كثيراً.

في الجهة الأخرى من جسدي، رئتي بلا ذاكرة، أتنشق كل ثانية بطريقة مختلفة ومبتكرة.

عبير الغارقة في نومها بعد نهارٍ طويلٍ مليءٍ بالمرافعات، تنام قريبة مني، لا يحركها أنيني. ورنا تمثل أنها نائمة وحين ألتفت بعيداً عنها أشعر بعينيها تطاردني!

ـ ماذا يا رنا، فيما تحدقين؟

ـ لا تغضبي مني، ولكن أشعر أنك ستتحولين إلى ذات الشعر الطويل بعد قليل؟

ـ ربما أتحول وحشاً يمزقك الآن، إن لم ترمِ لي شيئا يوقف هذا التخثر في رأسي!

لم يؤثر بي كلام رنا، ولكن بعد خروجها من الغرفة، وجدت نفسي واقفة أمام المرآة مباشرة... الألم يهرول فزعاً في كل اتجاه، وحيث لا يجد خلاصاً يستدير عائداً. بالفعل كنت متحولة إثر ما جناه إخوتي في حق وجهي.

شعرة فوق جبيني خفيفة من بقايا الدم العالق، لوني أزرق، وحدها أربعة أصابع تنتمي للوني الأساسي، وتفتش في وجهي عن ملامحي التي تأخر وصولها. كل ألم يليق بهكذا وجه، فقد تتحول الدموع المنكسرة إلى حالة احتراق تتبخر عنها جثث، لذا تقف يداي حارستين على باب

Twitter: @ketab_n

عيني، لتمسحها قبل أن تفتت الوجه المفتت.

لم أنس أن أسأل رنا، حين عادت بكأس ماء تفور منه حبتا مسكن، يحذر استخدام أكثر من حبةٍ منه في المرة الواحدة، عن ردة فعل أبي أثر هذا الضرب الذي تعرضت له، وإن كان أحدهم قد رشح تدخلاً طبياً يخفف هذا التورم!

جواب رنا، لم يقل قسوة عن هذه الخريطة التي تملأ وجهي بتقاطيع طارئة.

Twitter: @ketab_n

اتصالات أحمد المصري، باتت موعداً يعرفه الجميع، ويبدو أنها تتوافق مع مواعيد خروجه من عمله، ويبدو أيضاً أنه دوام بفترتين، حيث يتصل مرة عند الثانية ظهراً، ومرة عند العاشرة مساءاً.

أظنه أصبح الآن يفرق بين صوت أبي، وبين صوتي عبد الله ومعاذ! فهو يقول يا حج ويفسر ويوضح بهدوء، ويصلي على النبي، حين يرد عليه أبي. ويقول أنا لا أتكلم مع أطفال حين يرد عليه معاذ. كما يقول احترم نفسك (فعلا إنت واد مِش متربي!) حين يرد عليه عبد الله. وبخصوص حازم، فقد كان يخطئ صوته في الحقيقة.

صوري العارية لم تتوقف يوماً عن مفاجأتنا، فمرةً أبدو وأنا أصور نفسي أمام مرآة الحمام، ومرة أبدو نائمة في الصالة وأصور له قدمي، وشورت ضيق جداً، لا أعرف متى تسنى لي أن ألبسه في بيتنا، الذي يحذر فيه على البنات والشباب على حدٍ سواء لبس ملابس بهذا القصر؟ ويبدو أنه يخص رنا حين كانت في الابتدائي حتى! ومرة أبدو وكأنني أضع ملصقا يحمل صورة عقرب (تاتو) في مناطق حساسة من جسدي!!

من أين لي برمز العقرب هذا؟ أنا حتى الساعة لا أتجول في السوق بمفردي، دائماً أحد إخوتي يتجول برفقتنا، نكون أنا وأخواتي وأمي

Twitter: @ketab_n

ومحرمنا من الذكور نتسوق معاً، نعرف ماذا تحمل كل يد، وماذا طُوي في كل كيس؟

تُرى من منهم أذن لي بصورة عقرب، تنسكب كسجادة بارزة فوق خصري الضئيل؟

عندما وزع الله العالم، كيف جاء أخي عبد الله من نصيبنا نحن دون سوانا؟

ضربه لي لم يكن الوحيد منذ بدأ مسلسل أحمد والصور، فمعاذ انهار أمام سيل الصور أيضاً، وضربني حتى اضطر بعدها أن يخبئ كفه في رباط بني اللون. أما حازم فكان يتباطأ ليمنحني وقتا لأهرب منه، وبت أفهم طريقته هذه، وأقدرها كثيرا. وكان حتماً على أبي أن يظهر أيضاً بعض النخوة والمروءة بضربي! لعله خجل من حنانه أمام أخوتي. كان يثور أحياناً فيصفعني على حين غرة. والحقيقة أن جسدي كان مختمراً بضرب عبد الله، ووفياً لأثره هو بالذات، حتى في نومي يرفض جسدي أن يسافر في حلم، بقدر ما ينكسر مخلصاً لألم لا ينام.

منعت داليا من زيارتي ولا أعرف السبب حتى! منعت أنا من مغادرة نفسي وغرفة التحقيق (مكتب أبي) إلا في حال نومهم، أما نومي إن وجد، فهم فيه كرماح إن لم تشكّ لحمي، شكّت حلمي لأستيقظ هلعاً!

هاربة أنا من جسدي في جسدي... ومع ذلك يظل ما تبقى منه

Twitter: @ketab_n

صديقي.

بعد أن أتلقى صنوف الضرب، تعرض الصور أمامي، وتعاد علي نفس الأسئلة مع اختلاف الشتائم في كل مرة:

ـ هذه أنت، وجهك، جسدك و في الصالة في بيتنا، أتنكرين!؟

ـ هذه مرآة حمامنا كما أظن، أم حمام الجيران يا فضة؟ حس الدعابة ثقيل، خاصة إذا ما اندلق على لسان عبد الله.

قد تسقط على وجهي صفعة، وذلك لمجرد رؤيتهم لوجهي يضحك في أي صورة من تلك الصور.

أهو حقد على سعادة بائدة، وضحكة متجمدة في صورة؟

أريد أن أتكئ على صرخة تأتي من أوقات الشدة في كل الأزمان الشاحبة لأقول:

كنت أمزح عليكم، اعتقوني فقط..

Twitter: @ketab_n

كانت أمي تبرم منديلاً أبيضاً، تدس في داخله مئتي ريال صلبة، وتدسه في جيب حقيبتها السوداء، كمباركة أو عوضاً عن هدية لم يتسن لها شراؤها في زحمة ضربي. ستقدمه لابنة عمتي التي ولدت طفلها الخامس في منتصف محنة صوري. ولكن الواجب واجب كما يقول أبي دائماً، عليهم أن يتموا واجبات الزيارات الأسرية لاهثين، حتى يعاودوا ضربي على مهلٍ. أردت أن أطمئنهم أن وجهي باقٍ هنا، ولا نية له للمغادرة على أية حال. ولكني سكت، حين تلصص على ضلعي الأيسر، ألم يتململ لكثرة ما تكرر.

ضبطته أمي بنظرة واحدة. قبل أن تقول فجأة وأثناء طي المنديل فوق حقيبتها، البنت ملبوسه! هذه جنية تظهر بشكلها في أوضاع مشينة! واستشهدت ببعض القصص التي أسعفها بها خيالها في هذه اللحظة.

يتدخل حازم مسايراً أمي في قصة المس، وربما محاولةً منه لتخفيف الضرب عني:

ـ الحل الشيخ (علي) يقرأ عليها. أشهر شيخ في جدة والكل يتعافى على بركة يده.

أخذ معاذ يحشرج ببعض الحكايات، والتي تبدو متشابهة في معظمها،

Twitter: @ketab_n

خصوصاً في نهاياتها المهذبة، ومن ترى يبالي بالبدايات إن كانت من صنع الجن!!

هدأت زوبعة لف المنديل عند أمي.

قال عبد الله وهو يتصنع سعالاً يابساً، ويرمق الهاتف بنظرة تنمو كالطحالب:

ـ ونخبر الشيخ بقصة الصور؟!

ـ لا طبعا... نخبره أن البنت تتحدث معنا بصوت آخر في بعض الأوقات، وتنزع عن نفسها ثيابها، وتتعرى في أنحاء البيت دون وعي منها، هذا ما سنقوله وحسب... هكذا حسم أبي جدل زيارة الشيخ علي.

Twitter: @ketab_n

Rituale Romanum

طقوس اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية، لطرد الأرواح الشيطانية، أو لإنقاذ روح من أصابهم المس، وهي تستخدم الماء والقراءات (على غرار الرقية الشرعية في الإسلام).

Twitter: @ketab_n

أمام إشارة المرور، وقفت سيارة أبي باحترام كعادتها وعادته، على يميني تشابكت أغصان تحمل بعض الوريقات الخضراء على استحياء، كانت الشجرة الخجولة العارية يافعةً وقادرةً أن تخضّر أكثر، لكنها أبت إلا أن تتنكر في ثياب اليباس! كانت تخفي باباً أبيضاً، كتب على لوحةِ أعلاه:

ـادى صحـى رـاصى للسـد ات فقط.

ما هذه الجملة؟ لماذا هي عارية هكذا؟ ترى لم سقطت النقط؟ وهل يعقل أنها سقطت جميعها الآن معاً؟ أم أنها سقطت منذ زمن ولم يلحظها أحدٌ غيري؟

لعل النقاط السوداء التي أكملت (نادي صحي رياضي للسيدات فقط) كانت تلفت الأنظار أكثر فيما مضى، مما يضايق السيدات اللاتي يترددن على هذا المكان، ومنذ تساقطت نقطة خلف نقطة لوحظ أن المارة لم تعد تلحظ هذا المكان.

مابين ضوءين لإشارة المرور، تلثم أبي وأخفى معظم وجهه، حين اقتربنا من الحي الذي قالوا لنا أن الشيخ علي يسكنه. دخلنا زقاقا ليس مخيفا، بعكس ما توقعت وصورته لي مخيلتي، تركض فيه قطط سود

Twitter: @ketab_n

وظلال تطارد بعضها البعض في كل اتجاه، وسحابٌ أسودٌ مربوط إلى الحي طوال الوقت. أما أبي فأنزل زجاج سيارته، وبات يجاهد ليغير من نبرة صوته ولكنته الجنوبية، بلكنة مستعارة من جهة خامسة، وهو يستدل على منزل الشيخ من سكان الحي أنفسهم.

فيلا تتمدد على واجهتين، تحيط بها أشجار نخل أو جوز هند، يسقيها فتات ماء (وقْف)، كُتب قربه على لوحة بيضاء امتلأت بنمش الصدى (وقف للمرحوم بإذن الله حسن بن محمد).

لا أعرف لم شعرت بخللٍ ربما لا يعني أحداً، ولكنها فيلا كاريبية تلهو بأناقة لافتة، كل هذا لأنه ينفث ويبصق ويقرأ القرآن؟

الفيلا البيضاء البارزة في الحي، والتي تأمرك أن تصلي على النبي كلما مررت قربها، و قرأت اليافطة المعلقة أعلى البوابة! تصلي على النبي أما خشية الحسرة والندامة يوم القيامة، وإما أن تكون مثلي خشيتك آنية، كخوفي من البواب الذي أربك بنظرته جفني المتعب، فصليت على النبي جهراً.

البواب يرحب بك في المرة الأولى، وهو يحمل مصحفاً في يده يقرأ فيه طوال الوقت. ليتني أكون مخطئة، ولكني أظنه في كل زياراتي التي تلت هذه الزيارة، كان لا يزال يقف عند سورة الزمر!

لمحت اسم السورة في أكثر من مرة، لأنه يحاول أن يثبت لأبي أنه لا ينظر لمحارمه، فيقذف بوجهه أقصى اليسار، محدقا في الحائط، وكسلاً منه يترك يده بمصحفها الكبير ملقاة أمام البوابة، كحاجز طريق قصير القامة نعبر قربه كبقايا.

Twitter: @ketab_n

حذاء أبي الشرقي ينعس في خطاه، وأنا وجروح جسدي تلسعنا الشمس، فلا أعرف من منا يسحب من!!

بتنا أنا وأبي نعرف أن البواب يقف في الزيارة الأولى فقط، ربما هو حسن الضيافة، ومن ثم بعد أن يبصق الشيخ في وجوهنا، نصبح من أهل البيت فلا حاجة له بالوقوف حتى. . .

بعد أن تعبر البوابة متحاشياً السقوط على أرض الرخام المصقول بإرباك، تجد مكتباً أنيقاً يجلس عليه رجل شرق آسيوي ضئيل بدرجة لافتة، يحمل سبحة تتدلى حتى الأرض، ويُسبح أو يغني، ولا فرق يظهر على شفتيه!

هو شارد الذهن الآن، وبشفتين نشطتين قياساً على الجسد البليد على الكرسي، ويحفر عميقاً في ذقنه خلف تسكع الشعيرات، ودون أن يرفع برأسه حتى، يشير إلى أبي بسبابة كأنها تصلي، وهو يقول (حرمة هناك). أعود للخلف، وأتوجه يمينا كما أشارت لي السبابة الخاشعة، لأتوارى خلف ساترٍ خشبي.

تأكد أبي من جلوسي في غرفة انتظار السيدات، وأشار بيده علامة الانتظار، وذهب لدفع المئة ريال لدى موظف الاستقبال، وهي مئة تدفعها عند الكشف، سواء كنت ملبوسا، أو بجسد حر من سيطرة الجن، مقابل رؤية الشيخ و وقته المعطى لك.

غرفة الانتظار تثير الخوف في نفسي، الرؤوس السوداء، تخفي حتى العيون التي يجوز كشفها، لا أعرف من تحدق إلي الآن من تحت كتلة السواد، ومن هي المنصرفة إلى شؤونها؟

Twitter: @ketab_n

حين أبعد رأسي عن هذه الحجرة، أصطدم بصيدلية أو ما يشبهها خلف صاحب السبحة الطويلة، تحوي رفوفا ممتدة من نصف الحائط وحتى الأرض يبدو أنها فصلت على عجل، وهي ترهق العينين لكثرة تفاصيلها، مصفوف بها زجاجات زيت وماء وأوراق أشجار مغلفة بإحكام، ومطحنة تشبه مطحنة البن تعمل دون كلل.

ينادي العامل على إحداهن (أم سالم)، فتنهض وهي تردد أدعية بصوت أنثوي رقيق. نصف ساعة تفصل بين عبور أم سالم من أمامي، وأنا أعدل جلستي كي لا تصطدم قدمي النافرة بطرف عباءتها، وبين ذلك الصوت الذكوري الخشن، الذي ينبعث من نفس الحجرة التي تجلس فيها. أم سالم ومحرمها مع الشيخ علي، وصوت الشيخ يصل إلى صالة الانتظار وهو يقول:

ـ اخرج أقول لك... اخرج الآن!!

صوت (الجني) يردد بلهجة غريبة، ولكنها محلية بحتة:

ـ لا لن أخرج... قلت لك.

الشيخ علي قوي الشخصية، ويتحدث مع الجني وكأنه تلميذ في صفه:

ـ اخرج قلت لك بالطيب ودون أذية!

ثم تعلوا آيات قرآنيه أذكر جيداً أن آخر ما سمعته يتردد كثيرا هو:

«مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إِنَّ الله لا يُصْلِح عَمَل الْمُفْسِدِينَ»

إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ، إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ...

كانت تتردد وأنا أشعر بدوار شديد، وتلك الرؤوس المغلفة بالسواد تدور سريعاً، سريعاً جداً، كلعبة أختي ملاك، التي تدور دون كلل

Twitter: @ketab_n

بخمسة قطط، تبتسم وتحمل كل قطة غيتار أصفر. . . ليست القطط ما تستفزني، بل الموسيقى المصاحبة لها.

سقوطي في غرفة انتظار السيدات ولو مؤقتا، كان احتجاجاً على وجودي هنا، ولكنهم فهموا احتجاجي خطأ، فتحفزوا للقفز بدوري مباشرة بعد أم سالم، اعتقاداً من الجميع أن الجني القابع تحت جلدي سيخرج عما قليل، وعلى الشيخ أن يكون حاضراً أثناء هذا الخروج.

بيني وبين الشيخ علي (مركى) عربي سميك. هو يجلس على الكرسي، وأنا على ركبتي، ويفصل بيني وبينه هذا المركى القطيفة والمشجر بأحمر وأبيض، ويظهر عليه من لونه الباهت أنه يتعرض للشمس كثيراً. ربما هو يبتل ومن ثم يتعرض للشمس ليجف. . . يبتل بماذا؟

ـ اسمك؟

ـ فضة. . .

ـ علتك؟

صوت أبي جاء بعد قيلولة طويلة من طرف الحجرة:

ـ علتها يا فضيلة الشيخ. . .

الشيخ يخرب على أبي صوته، برصانة أكاد أشك معها أنه يرمش بعينيه حتى.

ـ سألت فضة. . . بعد إذنك يا أبو عبد الله.

لا يهم وجهي المثقوب بأصابع عبد الله، ولا هذا الصداع الأحمر، الذي يتناول رأسي منذ دخلت هذا المكان! لا يهمني سوى هذا السأم

Twitter: @ketab_n

الذي، يطفو على طول جسدي منذ سمعت صوت الشيخ علي، رغم أنه لم يقل بعد شيئاً!

ـ لا أعرف يا شيخ، هم يقولون أنني أفعل أشياء، وهناك صور أيضاً تقول. . . أنا لا أعرف أسأل أبي!

الحقيقة جسدي كان يرتجف، كمعلبات فارغة على الأرصفة في يوم عاصف، ورائحة دهن العود المنبعثة من كف الشيخ علي تخنقني، والدوار كان لا يزال يحدق بي، والصداع يضغط بشدة على مقدمة رأسي. لساني كان ثقيلا، ربما لأنها المرة الأولى التي أكون بحضرة رجل غير أبي وأخواني.

صوت الشيخ وهو يقرأ القرآن كان شنيعاً، صوته عالٍ جداً، وأنا أجلس مباشرة أمام مصدر الصوت المنبعث من فمه، يصب صوته في أذني مباشرة، يمسك برأسي بشدة، ويملؤه صوتاً، أحاول أن أفلت من يديه، فقط لأبعد أذني قليلاً عن فمه، هذا صراخ ومن الطبيعي فسيولوجيا أن ترفضه وتبتعد، وليس لأن الجني يريد أن يفلت من سماع التلاوة.

كلما حاولت إفلات رأسي كان يمسكه أكثر، كان يعصره بقوة، ويقربه أكثر، كمظروف يملؤه لعاباً ويغلقه بطرف لسانه. . . يقصف أذني بصوته الشنيع مباشرة في صيوان أذني.

أردت أن أصرخ ولكني تذكرت أم سالم، أخاف أن أصرخ فيدوي صوت لا يشبه صوتي. مهمتي إذاً هي مقاومة صراخه بصمتي!

بكيت تحت غطاء وجهي. . . بكيت وأنا أعض على أسناني بقوة، لا يجب أن يسمع لي صوت حتى تكون هذه زيارتي الأخيرة، صوته يمزق

Twitter: @ketab_n

أذني، دهن العود يحاصر وجهي، وأشعر بمرارة فوق لساني.

(وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنّ الشّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلّمُونَ النّاسَ السّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّىَ يَقُولاَ إِنّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ)

حضر من ذاكرتي الآن وجه معلمتي (أبله رقية) في الثانوية وهي تقرأ القرآن، كانت ترتله، وكنا نبكي مراراً، كان صوتها شجيا، لا يمكنك معه أن تضيع مكان الآية وأنت تتابع بأصبعك خلف كل حرف، كنا نرغم على التتبع اليدوي حتى لا يغلب علينا السرحان أو النعاس في حصة القرآن.

ورغم أني لم أصرخ، ولم ينبعث مني صوت جني ذكراً كان أو أنثى، ولم أسقط على الأرض، ولم أقاوم قبضة الشيخ، بعضِّهِ أو خربشته كما يحدث من الملبوس بالجن، إلا أن الشيخ التفت إلى أبي وقال:

ـ فيها مس هوائي، يجي ويروح... بجلستين أو أربع بالكثير تتخلص منه بإذن الله.

اشترينا بعض الأشياء التي أوصى بها الشيخ علي من صيدليته... بعض الزيوت المقري عليها من الشيخ علي شخصياً، وزيت آخر بقراءة شيخ يعرفه الجميع، وكان سعر الزيت أغلى ربما لشهرة الشيخ الآخر. وسدر مطحون، أخففه مع الماء المقري عليه وأستحم به كل يوم مرتين.

أجهزت على الأربع مئة ريال التي في جيب أبي مابين كشف وبصق وزيوت، وخرجنا من فيلا الشيخ، مع موعد للعودة يوم الإثنين بعد أن يكون أتى بعض مفعول الزيت وحمام السدر. كما أن بكائي لم يرح

Twitter: @ketab_n

الشيخ، فوصف لي من باب الاحتياط سماع سورة البقرة مرتين في اليوم، مع تجنب سماع الأغاني نهائيا.

قال أبي في طريق عودتنا بالسيارة:

ـ سمعتِ كلام الشيخ، لا تسمعي الأغاني إطلاقاً! طبعاً يفترض أن تكوني على معرفة بحرمتها، ومن الأساس لا تسمعينها، ولكن على الأقل لا تسمعيها حتى ننتهي من علاجك الآن.

ـ حسناً! ولكنك تسمع أغاني حفل الجنادرية، وتدندن ببعضها عن ظهر قلب!!

ـ أي علاج، ومم أشكو أساساً، أنا لم أصرخ حتى يا أبي...

تركت أسئلتي في صدري مبتورة وبلا أجوبة!!

في طريق عودتنا كان صوت المذيع يبث خبراً وكأنه عيد على الراديو:

بمشيئة الله تعالى سوف تشهد سماء المملكة والوطن العربي في يوم الجمعة كسوفا جزئيا للشمس.

حسناً... لي ذكرى سيئة مع هذه المناسبة، ومتأكدة أن أبي الآن يستحضرها، ولا يجدر بي أن أفتح أي نوع من الحوارات معه الآن، لأن غضبه سينفجر في كل اتجاه.

أذكر أن عبد الله قال لي مرة: إن حدقت في عين الشمس ولم تحترق عيناك فهذا يعني أن الشمس حافية!

لا أعرف لم انشغلت وقتها بقياس تلك القدم... قدم الشمس؟ كنت أصف أحذية كل الضيوف، مضافا إليها أحذية أبي وأخواني وأبناء عمي، حتى أكون قطار أحذية طويل يمتد من باب شقتنا حتى شقة عمي

Twitter: @ketab_n

المجاورة لنا في بيتنا القديم. ثم أركض للنافذة وأحدق في الشمس، فتلسعني حرارتها، وأغمض عيني عنها بشدة، أعود بوجه عابس، فلا أعرف كيف يمكن أن تحتمل هي حرارة نفسها بدون حذاء!

ومرة جاءت الصلاة في غير وقتها، كانت كفريضة سادسة ليوم واحد، كان الجميع يصلي وكنت مشغولة برصف الأحذية جوار باب المسجد، حتى مواقف السيارات الممتدة إلى نصف الشارع. حينها فقط حدقت جيدا فلم تلسعني الشمس، ابتسمت لها، وتصورت أن تلك البقعة السوداء التي ملأت عيني هي ابتسامتها المحروقة التي بادلتني إياها. . .

نجوت حينها من كسوف الشمس بعمى مؤقت، وصداع نصفي واضطراب دائم في الرؤية. . .

ـ لمَ لجين لا ترتدي نظارة طبية مثلي!؟

Twitter: @ketab_n

في البيت وبعد أن تناولنا عشاء خفيفا، كان الصمت جالسا معنا على السفرة بوقار لافت. وجوهنا هي أطباق الجبن والزيتون والبيض، الجميع يلبس فكرته شارداً بها، وجهي الذي لم يتعافَ تماماً من ضرب أخوتي، وجسدي المنهك من نفث وصراخ الشيخ علي، شعري الذي لا أذكر متى آخر مرة وضعت فيه مشطاً، دفع بأهلي في مشهدٍ صامت أن يتنافسوا على خدمتي!

أمي تقرب الخبز مني، أبي يشير إلى عبير بأن تصب لي الشاي قبل أن يفرغ كوبي حتى.

نظرات إخوتي تسرق وجهي خلسة، جعلتني أقدر أن كل واحد فيهم يفتش أيها ضربته، تلك التي تُظهر بوضوح ثلاثة أصابع ملتوية على خدي الأيسر ، وأيهم صاحب ذلك القوس الشامخ فوق أنفي منذ أكثر من أسبوع.

الهاتف الثابت يرن، ملاك تهرع إليه وترد:

ـ فضة فيها جني!

أمي تقذف بلقمتها أرضاً. تقفز وهي تمسك رأسها بيديها، حتى أنني أوشكت أن أصدق أنه سيقع عن جسدها، فيما لو لم تفعل ذلك!

Twitter: @ketab_n

تخطف السماعة من يد ملاك، وتقذف بالأخيرة بعيداً.

ترد وهي تصطنع ضحكة: يا للأطفال...

ترحب بالسيدة ذات التوقيت السيئ على الطرف الآخر، بنفس اللسان الذي يكنس بقايا العشاء عن فمها، وتشرح لها بتقصد تحرص جيداً أن نسمعه، لنتعلم كيف يكون كيدنا عظيماً:

ـ صادقة هذه الملاك... (قالتها وهي تضحك ساخرة) فضة اليوم فيها جني نظافة بالفعل، قلبت غرف أخواتها، غسلت الستائر والشراشف، ولمعت الأرضيات، حتى النوافذ لم تسلم من حماسها!!

ضحكات أمي تكاد تبدو حقيقية، وعلى أفواهنا ضحكات تحاكي ضحكتها وتتكسر سريعاً، فهي تأتي بدون تمارين إحماء.

يبدو واضحاً أن كلام أمي كان مقنعاً للطرف الآخر على الهاتف، فقد أخذت تردد أمي:

ـ آمين...، ومن قال الله يجازيه بمثلها يا رب...

وهذا يعني أن السيدة تمطرني دعاء، وثناء.

Twitter: @ketab_n

عبير ورنا تداويان وجعي، وتتركان لدموعي عناوين على وسائدهن.

عبير تلم شعري وهي تقبل جبيني، وتردد:

ـ لا عليك يا حبيبتي، نحن معك.

حنانها يطلق العنان لدموعي. أختبئ في صدرها وأنتحب، وأعض على صرختي كي لا تفزعها. أنا لم أبك منذ بدأ هذا كله، نصرخ نتأوه... صحيح، ولكن لا نبكي أثناء الضرب، بقدر ما نبكي بعده، أو في حضن من يحن علينا.

رنا تطوق ظهري وتسند رأسها عليه، وبلهجتها الحازمة كعادتها تقول:

ـ كل هذا سيتحول ذكرى... سيمضي سريعاً هذا الزمان، وكأنه لم يكن، ويوما ما حين نكبر قليلاً سنسهر معاً في بيت إحدانا، وأطفالنا يركضون حولنا، ثم سنقول حين نفرغ من كلامنا:

ـ أتتذكرن يوم بدأت تلك القصة الغريبة في بيتنا؟

يبدو أننا ثلاثتنا شردنا في ذلك اليوم البعيد، وربما سرحنا حتى في ملامح أطفالنا وآبائهم الآن.

أنا أم أخواتي وهن أمهاتي! لم نتعود أن ننسج أحلامنا إلا متشابكة، ربما لأن أمي كانت تبدو كنهر هجره ماؤه ذات قحط شديد، ولم يعد

Twitter: @ketab_n

إلى هناك أبدا.

هي لا تجد وقتا لتضم أحداً، فهي ترفض وجود الخادمة في المنزل، بعلة أن الخادمة تفسد البنات وتغوي الأولاد. تضع نظاما لنفسها، يوما للغسيل ويوما لكي الملابس وآخر للمطبخ و دواليبه وثلاجته، وهناك عمل يومي لا ينتهي ولا يخصص له يوم أو ساعة، كغسيل الأواني المنزلية والحمامات والطهي والكنس. . .

نستطيع أن نقول أن أمي ترى الفأس، ولا ترى الحقل في مجمل حياتها. كل شيء مقسم ومجزأ في أيام معينة، وللأسف الحب ليس له نصيب من قسمتها.

أمممم. . . أعتقد أن كل شيء يتكرر كل يوم في حياة أمي، أعمال منزلية كحفرة رمل لا تمتلئ ولا تفرغ وحسب!

Twitter: @ketab_n

استيقظت، مع أذان الفجر. . . كنت قد تعودت منذ مدة أن أجد عبير أو رنا، تحدق إحداهما بي وأنا نائمة، ولكني وجدتهما معاً هذه المرة، تجلسان على سرير واحد، وتحدقان بذهول وخوف، وكأن الذي أمامهما شاهد قبر.

ـ أين أولي بوجهي لأستريح من هذه المراقبة؟

ـ أنتِ لجين يا فضة!!

كل الكلام المناسب كان مستهلكاً حينها، ولكني قلت:

ـ ماذا؟

عبير تحدق أبعد من وجهي، تحدق في الدم الذي يسري تحت عروقي، وفي حلمي قبل قليل ربما! في رأسي إن كان هو أو سواه تحت الوسادة، فأنا تعودت أن أصنع منه شطيرة بين مخدتين، وربما لو كان لي بطاقة هوية لطالبتني بها الآن!

تتلفت كجندي ظل خط سير فرقته وتُرك وحيداً في غابة. . . تدلق كلامها في حنجرة رنا، وتخلص هي للتحديق فقط.

ـ رنا. . . لم أفهم ماذا تقولين؟

ـ كنت تهمسين في الليل. . . أخرجتِ من وسادتك شريحة هاتف،

Twitter: @ketab_n

ووضعتها في هاتفي بعد أن أخرجت شريحتي وكأنك لا ترينا، اتصلت برقم ما، ثم صوتك لم يكن هذا، ربما هو هذا. . . لا أعرف!!

تنظر إلى عبير لتتأكد من حكمها، ترد عبير دون أن تفلت شفتها السفلى المخنوقة بين سبابتها وإبهامها، وهي تقودها أقصى اليمين من فكها ثم في اتجاه معاكس أقصى اليسار:

ـ لا. . . هو هذا الصوت. . . ولكن كنت تتحدثين بلهجة أرق، أنعم، كنت كبنات جدة!! لم أسمع صوتك جنوبيا أبداً.

ـ ماذا قلت؟

ـ كنت تقولين: أحمد. . . أحبك، أشتاق لك بجنون! وقبلتِه كثيراً.

نظرات عبير ورنا تخبراني أن هناك ما هو أكثر! ويصعب قوله.

ـ وماذا؟

عبير تهمس، وهمسها يجيء حاداً كصوتها المعتاد.

ـ قلت له: (تيته) لم تسمح لي بمغادرة الفندق في مصر، بقاؤنا في (بورتو مارينا) لم يطل، هو أسبوع ونصف، وأن إخوانك وزوجات إخوانك كانوا يتناوبون على حراستك، ثم إنك الآن عدت إلى جدة!!

دوى صوت المؤذن لإقامة صلاة الفجر. . وقبل أن ينتهي، قالت رنا في استطراد:

ـ أظن أيضاً أن عينيك تغير لونهما، كانتا أكثر بريقا. . . كنت تبكين حقيقة، حتى أن دموعك بللت وجهك، وأثرها ربما لازال على بجامتك. . .

ثم قالت بلهجة حازمة:

Twitter: @ketab_n

ـ يجب أن تقومي الآن و تتحممي بالسدر كما قال الشيخ علي. ولكن قبل ذلك مهلاً. . .

مدت يدها ونفضت وسادتي بقوة، كما فعل أبي من قبل حين نقب في هذه الحجرة، ولم يكن أحد يعلم عن ماذا كان يبحث؟ مدت يدها عميقاً في غطاء الوسادة، وهي تقول: هناك ثقب.

عبير التي شاهدتني طوال الليل أتحدث بهذه الشريحة السحرية، وأعيدها إلى مكانها، كانت مذهولة وكأنها تكتشف هذا المخبأ الآن فقط!!

رائحة السدر كريهة، تشبه رائحة الحناء وهي تتصاعد من حولي كأدخنة تتبعني. لا أعرف إن كان هذا حلماً، ولكن لو كان كذلك فعلي الآن أن أستيقظ. ترى: ماذا يمكن أن تحمل هذه المياه الخضراء بعيداً، بعد أن مضغت جسدي؟

مازال الجميع نائما، وعبير ورنا أخفيتا الشريحة، وهرعتا إلى نوم شره، بعد أن قضيتا كل الليل في مراقبتي. وساعات النهار الأولى وهما تدسان محصول المراقبات الليلية.

هاتفي ذو الصور والرسائل منسيٌ هنا، على طرف طاولة التلفزيون يتوج ملكاً يُنزل الأحكام عليّ وحدي. ما يشدني هو الصور التي تقذفها السماء لتنقر حياتي هكذا!

وسؤال يلح منذ ثلاثة أسابيع. . .

ـ ماذا لو أنني لم أخبر أبي بشأن الرسائل التي كانت تضايقني حينها؟

لك الحق تماماً أن تقول. . . غبية!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في جلستي الثانية عند الشيخ علي، لم تكن غرفة الانتظار مكتظة كما كانت في المرة السابقة، أبي علل هذا لأن الناس تصوم يوم الإثنين، فتكون متعبة قبل الإفطار، ومتخمة بعده!!

إذا لا يأتي هنا إلا من يلتزم بالنوافل... الناس المطمئنة والمفوهة بالجنة فقط!

وهل الجن مولعون بتلبسهم هم دون سواهم من البشر خارج هذه الأرض وهذا الدين؟! هل يوجد جن في فرنسا مثلا، هل يتقن الجني الفرنسي الحديث مع جني سعودي؟ هل جني أوروبا متعالٍ على جني خليجي محدود المواهب، كالفرق بين اليورو والريال مثلاً!

أنا منقبة بين يدي الشيخ علي، وبيني وبينه (مركى) كالعادة، وسبع خطوات على الأقل تفصلني عن أبي. رائحة دهن العود أقوى هذه المرة... يبدو أنه تحمم به استعداداً لتعذيبي.

عيناي تنسكبان مباشرة بين قدميه، قدماه عملاقتان، وشعر ساقه الذي انحسر عنه ثوبه القصير، ينبعث في كل اتجاه. السبيل للهرب مستحيل، حيث هو كعادته يجلس على كرسيه ممسكا رأسي بين كفيه، مباعداً بين فخذيه، وبين ساقيه مباشرة الفاصل الإسفنجي، ومنظر القدمين يطفر من

Twitter: @ketab_n

الجانبين.

أغمضت عيني كعادتي حين أتحاشى النفث والبصق المباغت من فم الشيخ علي، ولكنه هذه المرة قال لي: أبقيها مفتوحة!

رفعت رأسي لأول مرة بين يدي الشيخ، عيناه تخترق عيني كرمد يتسرب ببطء. نخرت عظمي رجفة باردة، ورعب مصحوب بغثيان، من تلك النظرة الخارقة.

ـ قلتُ لك... أبقيها مفتوحة.

ـ فتحي عيونك يا بنت! (صوت أبي متململاً من نقص تركيزي بين يدي الشيخ).

أحن إلى صوت أبي، وأشتاق له الآن فقط، وأنا هنا بين هاتين اليدين الغليظتين.

تشتعل بين الجفنين دمعة لزجة، فلا أغمض عيني كي لا تتناثر الدمعة، وتصيبني بدليل عبور يبحث عنه الشيخ. تتأرجح في عيني حفنة الماء يمينا ويسارا...

ولا تسقط!!

هو يضغط بشدة، وسيعلو صوته بالتلاوة أكثر فأكثر، إذا ما سقطت دمعة من عيني، فقد تكونت لدي خبرة معقولة لخط سير نبرة الصوت هذه.

في عُرفه حين تبكي المرأة أثناء القراءة، فإن من يفعل ذلك هو من يسكنها من الجن، في محاولة لكي يثني الشيخ عن الرقية باستعطافه ليرفع يديه عنها. يعبر الجني إلى قلبه من باب الشفقة العظيم، محاولا

Twitter: @ketab_n

حمله على التوقف عن القراءة على ممسوسته.

هو لا يدري أنني أحسد الحلزون الذي يلوذ بقوقعته الصلبة حين يفزع... قوقعتي للأسف عباءتي الهشة، وهي ملتصقة بجسمي وترتجف أكثر مني. كلانا مفضوحٌ في هذه الغرفة الباردة بعض الشيء.

رفة أخرى من عيني فتسقط على خدي فضيحة كانت مستترة... يلتقطها الشيخ كعيد جاء مباغتاً، ومخالفاً توقعات الفلكيين ومتاجر الحلويات.

لا أعرف كيف أصف هذا، ولربما لا يستحق الأمر الوصف. وحدها الأنثى هنا، ذكيةً كانت، أو متواضعة الفهم كفهمي، تستطيع أن تتقن التخمين بمغزى نظرة تبطن سراً. ربما لأننا نخفي خلف النقاب باقي حواسنا، فتصبح أعيننا عقلا يحلل، وفماً يتذوق. يتضاعف السمع ليتخلل النوايا، باتجاه كل صوت يمضي بقربنا! ربما أيضاً هو جسدها الذي تراه معكوساً وعارياً، في عين صاحب تلك النظرة التي تعود صاحبها أن يرى ما تحت العباءة.

إذاً: علينا أن نعترف أنها مهارات متبادلة، لا يمتلكها إلا من سكن هذا البلد.

على شفتي الشيخ يستريح سؤالٌ عارٍ:

ـ تحممتِ بالسدر؟ (لمَ شعرت أنه مستمتع).

ـ صبح هذا اليوم... نعم يا شيخ.

ـ والزيت يا فضة؟

ـ أمي ساعدتني في التمرخ به...

Twitter: @ketab_n

ـ أين مرختك به أمك؟

ـ أمممم. . . بكل جسمي يا شيخ!!

تنهيدة الشيخ جاءت هلامية لزجة وملتصقة بشفتيه، حتى امتدت إليه يد من بين أنقاض جسد. . .

كان ذلك جسدي، وكانت تلك يدي!

رفعت عيني خلسة، فرأيت عينيه مغمضتين، وابتسامته تتساقط كحد الموس. كان صدره يعلو ويهبط، وهو يخرج سواكا منفوشا وعتيقا من جيبه. انتقلت عدوى السواك بدورها إلى أبي.

قال الشيخ وهو يجلد فمه المنقبض، فيما صوت الجلد يتناهى إلى أذنيّ بوضوح تام:

ـ البنت بها (زين). . . ولا أنا غلطان؟

ـ نعم والله. . . هي أجمل أخواتها! اكشف عن وجهها وتأكد يا شيخ.

ـ أستغفر الله. . . (قالها الشيخ وهو يحدق بوجه أبي، وكأن العرض الذي قدمه أبي مهين لفضيلته) يبدو أنها منظورة في هذا الحسن يا أبو عبد الله. إحداهن تمنته وحسدتها عليه، وصادف أنها لم تكن محصنة بالقرآن حينها. لكن بإذن الله دواؤها عندي.

بارك لأبي بحرارة، لأنه استطاع تشخيص علتي بهذه السرعة. صافح الشيخ علي أبي ، وألقى بكفه الأيسر على كتفه، وطمأنه أن هذه الحالات تأتي إليه كثيرا، وتتعافى سريعا.

أصبحا الآن رفقةً، أبي والشيخ.

فأبي لم يفلت يده. . . على العكس، تحولت المصافحة عناقاً!

Twitter: @ketab_n

حدد الشيخ موعد الجلسة الثالثة يوم الخميس.

اعتذر أبي، وتساءل عن يوم الجمعة، أو السبت.

ـ ما رأيك في يوم الغد يا أبو عبد الله؟

سأل الشيخ، وهو يميل بجسده الضخم إلى اليمين قليلاً أثناء طرح سؤاله؟

لدي إحساس وليمة تتمدد الآن على عشب في الهواء الطلق، وتقتات عليها الفئران والقطط جنباً إلى جنب في توأمة نادرة، وكشعبٍ واحد، وكل ما جاء من أثرٍ ومعالم لأقدام تشي بمطاردات القط والفأر الأزلية، هو محض افتئات لا مكان له هنا.

أشك في كل شيء الآن... في قهوة الصباح، ومجاعة الصومال، وحر جدة، وحبي للمطر، وخبث الجن، وصديق الإنترنت..

مهلاً... أي صديق!؟

ثم مهلاً مرة أخرى... ماذا لو خرجت من هذا كله، و قلت الآن للواقفين على الباب كعاشقين ممعنين في التهذيب، بعد القبل والعناق... ماذا لو قلت للشيخ وأبي:

ـ أعي ما تفعله لجين بجسدي...

هل يعفيني هذا من قبضة الشيخ غداً؟

Twitter: @ketab_n

لو راجعت أيامي الأخيرة، فإن أكثر ما ترك أثراً في نفسي، أن عبير ورنا تخلتا عني قبل زيارتي الأخيرة للشيخ، معتقدات أن من يسكن جسدي هو الذي يقود هذا الرفض، ليعطل عملية الشفاء على يد فضيلته.

ما إن دخلنا على الشيخ الذي بدل ثوبه الأبيض بثوب أصفر مبالغ في نقوشه، حتى أعلن له أبي تفاصيل تلك الحرب معي، وأنني أغلقت الباب على نفسي، وقاومت جر أبي لي!

هز الشيخ رأسه علامة الموافقة، فهو العارف بكل شيء، وهو وحده من يمتلك سواكا في هذه الغرفة، و يلوكه بعنف هذه المرة:

ـ شيء متوقع، فالمسحور يسكنه من يرعبه فك السحر عنه، لذا يبدو وكأنه لا يحب فك السحر عن نفسه، فهذه في الحقيقة ليست مقاومة ابنتك، بل مقاومة ساكنها، وما ضربت وقسوت إلا على من يستغل جسد ابنتك ويقيم فيه يا أبو عبد الله، فسلمت يداك!

ها أنتذا... تقص فزعي على مقاس رغبتك المتدلية من سقف عينيك يا شيخي. أنا لا أزيد أو أنقص عنك. فزعي يطعم نارك، ولا مهرب أمامي، فصوتك تدرب جيداً لكي يكون مسموعاً، وألا يحاسب مثل صوتي، فكما تعرف أنا عورة عارية. وأكثر من ألم صراخك المتواثب

Twitter: @ketab_n

في أذني، والذي اعتدته أخيراً، هو خوفي الآن!

أعرف أننا لا نتعود خوفاً مهما مارسناه.

ازداد أبي حماساً وزهواً بنفسه وهو يقول:

ـ لقد اضطررت أنا وأخوها لحملها، حين تشبثت بالباب وبأمها، حتى أن أم عبد الله بدأت تضعف أمام بكاء البنت! تعرف يا شيخ هشاشة قلوب النساء.

سبابة الشيخ علي تلوح في الهواء، وعيناه مغمضتان:

ـ حذار حذار يا أبا عبد الله من الانصياع لرغبة المسحور!

إذاً النوايا الآن معلنة، الشيخ بات يعرف أني أعرف أنه سيقرأ علي بكل جسده.

حذاءٌ قذرٌ سيظهر عما قليل، محاطا بعمامة بيضاء وذقن صماء، وجه آخر شممت بعضا من رائحته في المرة الماضية، سيسحق فضة ولجين معاً، وسيرمي بجثتيهما في بحر أو نهر، وسيفصلهما عن بعضهما أخيراً، فهذا التعدد في داخلي سدّ ممر الحياة في صدري، والشيخ علي سيعيد توحيدي من جديد.

ـ هل تحس لجين بهذا الآتي مثلي؟

Twitter: @ketab_n

في البيت، كانت أمي تستعد لقدومي. . . أظن أنها تبخر كل ركن في حجرتنا. تدير تلاوة خاشعة لسورة البقرة، وترفع الصوت بما يفيض عن الحجرة، وتخرج من غرفتنا وهي تغلق الباب مسرعة، قبل أن يتسرب الصوت خلفها.

تحضر لي حمام السدر، ومناشف وشرشفا أغطي به شعري، فلا أنكشف حتى على إخوتي بعد الحمام هذا، لأوضع أنا وسورة البقرة في حجرة واحدة، نتكوم فيها معاً حتى أنام. كانت هذه إضافة من أمي، تقول أنها تابعتها في إحدى القنوات الفضائية.

حين حملني أبي من غرفة الشيخ بين ذراعيه، ووضعني في المقعد الخلفي، ممددة من أقصى يمين السيارة حتى يسارها، فيما تلتف قدماي الباردتان خلف فخذي، مسح جبيني بطرف عمامته، ربما قبلني وربما تمنيت ذلك فقط!

لملم قدمي ثم صفق بباب سيارته المجاور لي، وقفز خلف مقوده.

وعلى ما أذكر أن جزءا من عباءتي بقي كعلم هزيمة سوداء ذابل و مختنق، ومتروك خارج باب سيارة أبي.

المقاعد تبدو أكبر حين تتمدد عليها أفقياً، ورائحتها أقوى. جسدي

Twitter: @ketab_n

رداء قلبي المتبخر، وما بقي مني يتوسد خدي الأيمن، فلم يعد لي سند غيره الآن.

حين كنت طفلة، كانت العمائر الطويلة تتعلق بزجاج نافذة السيارة، فأهرب من جوار الزجاج إلى منتصف المقعد، ليحميني من البنايات، ظناً مني أنها ستتهاوى في تلك الجهة. وحين أكون في منتصف السيارة أكون على مرأى مباشر من يد أبي، حين تلمس كف أمي.

أحب أبي وأغار عليه كثيراً، كان حين يتوق للضحك يقول سأتزوج امرأة أخرى، وستنجب لي فتاة جميلة شعرها أسود وطويل جداً. كنت حينها أغضب، وبحركة غير إرادية أعيد رأسي للخلف، حتى تلتصق مؤخرة رأسي بأول ظهري، وأسقط يدي اليسرى خلف ظهري مباشرة، ممسكة أطول شعرة تصل إليها يدي... أشدها للأسفل ثم أقول:

ـ هاه... انظر شعري أنا أيضاً طويل!!

كان ضحكهما ينتهي بسعال غالباً، وكنت أقوم من بينهما باكية دائما ً أدخل غرفتنا وأنزوي في سريري وأُنسى هناك، وينسيان هما سبب ضحكهما، ولا أنسى أنا سبب بكائي.

حين وصلنا إلى البيت، حملني أبي إلى الأعلى، تلقفتني الكثير من الأيادي... أمي وأخواتي والجميع ساهم في حمل الجثة، إلى مثوى السدر، فجسدي كان يقطر ملحاً.

حين دخلت منجم البخور الذي زرعته أمي في حجرتنا، كنت أول من يسعل، ومن ثم عبير ورنا. ملاك لحقت بنا وأغمضت عينيها، فهي لا تعرف تحديداً ما الذي يضايقها.

Twitter: @ketab_n

تناست أمي كالعادة أن تغلق صوت المقرئ المدوي في غرفتنا، وأظن أنها حتى لو أغلقته، فسيبقى الصوت ملتصقاً بالجدران، لأسمعه حتى في نومي.

تركت الآيات تستقبلني، بينما غادرت هي دافعة أمامها ضفائر أخواتي، وتركت الباب خلفها نصف مفتوح.

أظن صوت أبي في غرفة الجلوس، يمضي شارحا ما حدث في جلسة القراءة الثالثة، والصور تزدحم على شفتيه. في البدء كيف أن رأسي تمرد على يد الشيخ علي، ثم مثلاً كيف انزويت في ركن الحجرة وتطاولت عليه، وصرخت أنه يكذب، فيما أصابعه تلمس جبيني، وبعض خدي، وكيف أن هذا لم يكن أنا، كما صرح الشيخ، فكان لزاماً عليه أن يضرب الجني الخارج عن الأدب، ويضغط عليه أينما ظن مكانه، ويتتبع حركة سيره في جسدي، حتى ارتجف الشيخ ثوانٍ قرب موقد جسدي المحترق من ضغطه على كل استدارة فيه، ثم ابتعد و بصحبته رائحة تشبه رائحة الكلور.

صوتي لو صرخ مئتين وست وثمانين صرخة، بعدد آيات سورة البقرة التي أسمعها كل يوم، لما التفت لصراخي أحد في تلك اللحظة.

فرغ مني الشيخ. . . قال لأبي: خذها لطبيب نفسي لو تكررت لديها الحالة، أما بخصوص الجني فإنه، بعد هذا الضرب، لن يعود ليرعى في جسدها ثانية.

وصل الشيخ إلى قراره الأخير هذا، وجبينه يتصبب عرقاً، فيما يعيد ترتيب فوضى غرفته، ويطلب من خادمه الشرق آسيوي، أن يصعد

Twitter: @ketab_n

بالمركى المبلل للسطح، ويعرض ماءه للشمس.

لازمت السرير يومين، متلحفة بوجعي. كان جسدي المضروب يتورم، ومعدتي تغوص في ظهري، وأصابع الشيخ معلقة على عنقي كوشم أزرق، وفوق كليتي يتربع مثلث قائم الزاوية، لا أعرف مصدره، وبت أظنه بقايا ركبة الشيخ علي، حين كان يتعقب الجني فوق خصري.

آه... نسيت أيضا!!

خنصر يدي اليسرى يرتجف طوال الوقت. أمي عللت هذا بأن مكان خروج الجني من جسدي كان عبر هذا الممر الضيق جدا، فهم لا يميلون للظهور منكسي الأعلام مهزومين، لذا يتسللون خفية من أضيق الأماكن.

ولو كنت قلت لها إن الشيخ رضع هذا الإصبع، كرضيع قضى عمره كله جائعا، لبررت ذلك بأنه كان يخرج سم الجني من دمي... ولا شيء أكثر من ذلك.

تذكرت الآن قصة عمتي التي أسماني أبي باسمها. حين سكبت أمي القصة بين ضلوعنا، كنا صغاراً، ولكني كنت حينها بذاكرة شرسة!

أخبرتنا أن عمتي فضة وبعد شهرٍ من عرسها، نبت الشعر فوق جسدها مجدداً. كانت تشبه أرضا هجرتها يد حارثها! نما عشب غامق وفوضوي في كل مكان، وحين تتغامز النساء في المجالس بأنها لا تتزين كالآخريات، ولا تزيل شعر جسدها، ليهنأ زوجها بملمس الزبد الطري، كانت تتنهد وتخفض رأسها أرضاً.

الساعة اختلفت مراراً، وهي تحمل معولاً يخطف عمرها، طوال

Twitter: @ketab_n

عشرين عاما تلت يوم عرسها، ولم تنجب ولم تخبر أحدا أن يدعو لها بذرية تخلفها، فعيب على المرأة أن تستسقي الغيث حتى وإن تأخر.

تركت عمتي نهدها ينمو وحيداً، بلا صغيرٍ يقتات عليه، ولا يدٍ ترعاه. وحين كان يعرق خصرها كانت تنطوي خلسة في فراشها، لتعيد الماء إلى داخلها، كي لا تجف سريعاً، ويلحظ أهلها أنها لا تروى.

ويوم موتها، أمطرت السماء بغزارة، حتى ظن الناس أن الوادي سيغرق. قيل أن جدران بيتها و السيل والأشجار تحالفت جميعا، وصعدت الجبل حاملة رفات عمتي، لتكون جارة للقمر، ومدارا للحكايات.

قالت بعض قريباتها:

إنهن أثناء غسلها تمهلن كثيراً خشية أن تنكسر لشدة يباسها. ولكنهن لمنها أيضاً، لأنها كانت تبتسم بشدة، وحاجباها مندهشان وكأنها لاقت الموت فرحاً بعد طول انتظار. تذكرنها كذلك بعد عام من موتها بكثير من الحقد والغيرة، قلن وهن يلوين أفواههن:

إنها رحلت مع المدى سعيدة بعشق الغيم لها، وكأنه لم يكفها أن زوجها أحبها لدرجة أنه لم يبدلها بأخرى، حتى حين عجزت عن أن تحمل له طفلاً!

تعودت النسوة أن يحسدن بعضهن البعض حتى على موتٍ أنيق.

ثم لفرط ما عيروا زوج عمتي فضة بهشاشة قلبه، وجبن ذاكرته أمام زوجته، رضخ لإلحاح الجميع و تزوج صبية يتيمة لم تتجاوز التاسعة عشرة بعد، ظناً منه أن امرأة أخرى ستكون حمقاء مثل عمتي التي تحول

Twitter: @ketab_n

جسدها غصناً يابسا قربه.

حين انسلت العروس في سريرها، وتغلغلت في لحاف زوجها، استصرخت الناس جميعاً. كان لا يزال البعض مستيقظاً يرقص، وحتى من استعجلوا النوم استيقظوا فزعاً!

تجمع الأهل حولها وقد ارتدت كل ثيابها، وأسدلت أكمامها المطرزة، لتخفي نقش حنائها ثم قالت بأعلى صوتها:

ـ أنها تنام جوار مسخ لا هو برجلٍ ولا هو بأنثى!! وإن كان لابد من تصنيف سيرغمها القوم عليه الساعة، فهو أنثى يا سادة!

والآن... من سيوصل لعمتي فضة بعض هذه الاعتذارات التي جاءت متأخرة عمرها كله!

Twitter: @ketab_n

تخلص أبي من الشريحة ذات الصور الجميلة، وتخلص من الهاتف كله، ومن عقال استهلكه في ضربي. وتباشروا بعودتي مع عودة حقائب المدارس، فأنا أيضاً حقيبة تخفي بداخلها حقيبة أخرى... هذه كل الحكاية.

بداخل الحقيبتين الكثير، ولولا عبث طابور النمل بمؤننا، لما عرف أحد بأمر الحقيبة الأخرى بداخلي.

أخفت عبير ورنا الشريحة والشعر الأسود الطويل، وبرئن من صوتي الرقيق في آذانهن، ولم يبق مني إلا فضة بنت الجنوب التي تتنفس الرصانة، والتي تنتظر النصيب أيضاً بفارغ الصبر... مخدعي مطوق، ولم أعد أستطيع أن أهذي في ليل مراقبٍ من جميع الجهات!!

ليل طويل، قضت عبير ورنا أوله في لف خصل شعرهن خصلة خصلة بالقصدير، وتعريضه للسشوار، ثم فك لفائف القصدير في الصبح ليبدو ملفلفاً وغجرياً. هو جهد مضنٍ مصحوب بنومٍ قلق، بعد إجازة فوضوية طويلة، وحتى لو استأنس النوم واقترب منهن فالقصدير لئيم و بلا رحمة. العزاء في هذه الليلة أن هذا الجهد قليلا ما سيتكرر في باقي الأيام، هي احتفالية تخص أول يوم دراسي فقط.

Twitter: @ketab_n

الجميع خرجوا في صباح اليوم التالي. . . أخواتي وإخواني، وبقيت أنا وحدي مع نسبتي المحبطة. عدت بعد انقطاع طويل إلى (اللاب توب). احترت في عنوان البريد الذي ظهر لي كاملاً على صفحة الماسنجر:

Lujain@hotmail. com

كان محفوظا في مستطيل في الأعلى، يحفظ الاسم الأخير الذي دخلت به، وفي المستطيل الثاني كان الفراغ ينتظر رقما سرياً أو سحريا، ليدخل بي إلى عالم آخر لا يشبه بيت أسرتي.

ما هي الأرقام السحرية التي تعبر بها لجين يا ترى؟

جربت كل احتمال خطر ببالي، تاريخ ولادتي، وتواريخ أعوامي الدراسية، وميلاد فرح وملاك وأرقام تصاعدية وتنازليه فردية وزوجية. . . ولكن بلا جدوى!

لا أعرف حقا ما الذي يمكن ألا تنساه لجين وأنساه أنا؟

إذا هذه بوابتها. . . من هنا عبرت بجسدي إلى القاهرة، وكبدتني كل هذا العناء!!

قاومت دموعي، وحذفت إيميل اللعينة تلك، تخلصت من الإيميل المحفوظ، وأضفت إيميلي، وتركت نفسي مع ١٧٤ رسالة.

خطر لي أن أفتش عن تلبس الجن للبشر، وكأني أصدق الشيخ علي أخيرا. . .

شدني أحد المنتديات اللبنانية، وهذا المقطع من كتاب المسيحية المقدس (أنجيل مرقس). . . لا أعرف إن كانت هذه آية أو شيئا آخر:

«قال له: اخرج من الإنسان يا أيها الروح النجس، وسأله: ما اسمك؟

Twitter: @ketab_n

فأجاب قائلا: اسمي لجئون، لأننا كثيرون»

ثم يأتي شرح لا أفهمه أيضا: وكان الجيش الروماني مكون من لجئونات جمع لجئون، وكل لجئون (فيلق)... وفهمت أن الفيلق ٦٠٠ رجلاً.!!

سرقني هذا الموقع طوال ساعات النهار، وربما تلك الطمأنينة بين المتحاورين من أعضاء المنتدى هي من سرقتني أكثر، وأظنني فهمت بعد أن تتبعت (فتى الروشة)، والذي كان أوضحهم شرحا، أنه في زمن النبي يسوع عليه السلام، كانت هناك روح (نجسة) تلبست مجنونا، وجعلته يسكن القبور ويدمي جسده بالحجارة، لتعجز حتى السلاسل عن تقييده. عرضه قومه على يسوع ليطرد الروح النجسة منه، فما أن لمسه حتى قال:

« اخرج من الإنسان يا أيها الروح النجس...»

هذا البائس كان يسكنه ٦٠٠ شيطان، لكن يسوع وضع يده عليه، وأمر الشياطين أن تخرج إلى أبعد مكان عن البشر في الجبال، حيث قطيع كبير من الخنازير يرعى«فخرجت الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر. وكان نحو ألفين، فاختنق في البحر»...

وفي دهشة من الحاضرين، خرجت الروح النجسة، وشفي المجنون من جنونه، وطلب منه يسوع أن يذهب إلى بيته وأهله، ويخبرهم ماذا صنع به الرب؟!

«فمضى وابتدأ ينادي في العشر المدن كم صنع به يسوع»... هذه العبارة الأخيرة أضافها (سلوم الجبل)، مؤيداً وشاكرا لما تفضل به فتى

Twitter: @ketab_n

الروشة من شرح وتفسير. . .

لجئون، لجين. . . هل هو تشابه في الحروف فقط؟

Twitter: @ketab_n

وحيدة تماماً في هذا الصبح، لا أحد هنا، وأمي لن تستيقظ قبل أذان الظهر. ولنكن شديدي الوضوح هنا، حتى لو استيقظت فهي لا تعد صحبة جيدة، لا في وقت يفيض بهجة، أو آخر يختنق كآبة كهذا.

وقت الصبح جميل، غير أنه يحني ظهرك إذا ما تكرر نفسه كل يوم، وحيداً، بلا عمل، أو دراسة، ولا خروج من المنزل إلا لأسباب مقنعة، يسقط منها الترفيه ومقاومة الملل وخلافه، فهذه تقع تحت طائلة الدلال، الذي لم يعد مجديا مع أمثالي.

الصبح يمضي بطيئاً، وحتى المشي الطويل في الممرات، لا يخفف من وقعه الثقيل. الرطوبة تعانق جسدي، هي ليست حمى فالحمى تعطيك مناعة من نفسها بعد أن تصيبك، مدةً لا تقل عن ستة أشهر. . . هكذا تقول أمي دائما. وأنا في هذا أعرف أنها أم تؤدي عملها جيداً، وهو يتضمن إطلاق بعض الوصفات الطبية وبعض نصائح عشبية.

استسلمت مع هذه الرطوبة اللزجة لنوم رتيب، تستخدمه معظم النساء لهزيمة وحشة الصبح.

في حلمي الصباحي الثقيل، رأيت نفسي اسأل أبي:

لمَ تعثرت أنا باسم فضة، وحظيت أخواتي بأسماء جميلة؟

Twitter: @ketab_n

فأشار إلي السماء بعصا سحرية، فاختفت زرقتها. . . قذف بثلاثة أسماء من نجوم فضية كاسمي، تحلق قرب رأسه. وقال:

ـ هذه أسماء عماتك الباقيات. اختاري غير اسم عمتك فضة. . . صالحة، شريفة، هيلة!!

وقفت أسماء عماتي تسترق النظر، وتكاد تصطدم بوجهي لفرط حماسها. لوقفة الأسماء في السماء صوت كدقات الساعة:

تكْ تكْ تكْ.

أظنني أسرعت ألهث بعيداً عنها، و أظنني أكملت الركض حين صحوت. لا أعرف. . فلا مسافة تذكر بين أحلام منامي وواقعي، فكلها متطايرة!

بالمناسبة: عمتي فضة عكسي في هذا تماما، فهي لم تكن تحسن أن تدبر حلماً.

حين تتجمع النسوة على قهوة الصباح وثرثرة أحلام الليلة الماضية، كانت تعلق سبابتها على جبينها، وتنتظر حلمها، كي يهطل كفراشة، ويحط على أصبعها، قبل أن تيأس و تقول:

ـ لو كان جميلاً لتذكرته!

وهي أيضاً عكسي، فلديها أجمل اسم بالنسبة لأخواتها طبعاً، أما أنا فأحمل الأسوأ بين أخواتي. هي ماتت قبل شقيقاتها، وأظن أنني سأموت آخرهن في نهاية المطاف.

ألا يقولون:

«عمر الشقي بقي»

Twitter: @ketab_n

منذ رأيته أول مرة، فيما يسمى بالنظرة الشرعية، لم أشعر بالماء البارد ينسكب بين ضلوعي. كانت داليا قد فسرت لي أن هذا هو شعور القبول، الذي تُفتح بعده بوابة الحب والاستمرار.

ما أسهل صلاة الاستخارة، وما أصعب الشعور بنوع الاستجابة! هي صلاة لا تطول أو تقصر، ولا سجدة سهو لها للأسف، فأنا كنت قد اعتدت على سجود السهو كركن خاص بي، أختم به صلاتي منذ تبعثرت ذاكرتي.

هم يقولون أنه عقب صلاة الاستخارة يحضر إحساسٌ، خفيفٌ وقورٌ يحمل بشارة تئن بـ: (لا) أو (نعم)!

هذا بخصوص الطلب الذي قُدم في الصلاة.

وأنا لا أشعر بشيء كهذا، رغم أني صليتها عشر مرات لحد الآن!!

وجملة (لا أشعر برغبة في هذا الزواج) لم تعفني من الأسئلة، ولم تقنعهم بأسبابي، فقد رأوا أن فكرة ترددي على شيخ، كان من الممكن أن تعطل زواجي تماما، فطالما هذا العريس هنا، فعلينا أن نردع كل استخارة مغرضة، أو ماء بارد لا ينسكب من أعالي السماء إلى ظهري مباشرة. ثم إنني أنسى كثيراً، فلربما جاءت الموافقة، ونسيت أن أنتبه!!

النظرة الشرعية لا تأتي مرتين مع نفس الشخص، لذا علينا أن نستلطف بعض، ونتأكد من سلامة ألسنتنا وعقولنا وروائحنا وكيميائنا، خلال عشر دقائق على الأكثر!

ـ لم لمْ تكملي دراستك فضة؟

ـ أمممم... نسبتي هههه!! (كنت أمثل الخجل حقيقةً).

Twitter: @ketab_n

ـ وبماذا ستحتاجينها أساسا. . . هههههه. أنا لا أحب أن تعمل زوجتي.

تبادلنا الضحكات المصطنعة الثقيلة (ذكرني ذلك بصلاة الاستخارة اللاهثة خلفي منذ أسبوع).

حسنا هو باختصار كفاكهة حامضة، لها فوائدها بالتأكيد، وناسها الذين يحبونها، ويشتاقون لها رغم قسوتها على اللسان، ولكني لست من أولئك الناس.

إذاً. . . عريسي لا يمكن أن يغدو، مهما اصطنع من ضحكات، أفضل مما هو عليه.

ـ حائط من الإسمنت يفصل بيني وبينه، ولن يتغير الأمر لأن هذه كيمياء كما قلت لكما. . . هل فهمتما؟

وجه عبير ورنا لا يشعرني أنني استطعت أن أوصل لهما ما هو تفسيري الشخصي لشخصية راشد.

المرة الأولى التي تركنا فيها بمفردنا، أنا وراشد، كانت حين هاتف معاذ (المكلف بمراقبتنا يومها) صاحبه ليسأله عن نتيجة مباراة ريال مدريد وبرشلونة، ومع ذلك لم أشعر بالفرق، بل إن وجود أحدهم إلى جوارنا كان يخفف علي كثيرا.

لا أذكر أن متعة ما كانت مشتركة بيننا. فعلاً تمنيت حباً يتناول قلبي كتفاحة في قضمة واحدة، ولكن حصلت على علاقة عاديةٍ ذات كلامٍ عاديٍ، ونظرات عادية ٍ كأنها شيء يجب أن يحدث، كشربك اليومي للماء كي لا تخسر كليتيك، ولكن فعلياً أنت لست في حالة عطش.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا نفعل بالمفاجآت؟

ـ نستقبلها فحسب . . .

Twitter: @ketab_n

في عطلتنا الأسبوعية، يزورني راشد، وحين لا يحسن تصريف أخواني من الغرفة، لنكون بمفردنا، يكتفي بالجلوس واستراق النظر، محاولا تشتيت انتباه إخوتي، كما يفعل مع حازم بحديثه عن السيارات وموديلاتها، و ما يفعله الشباب الهواة لتغيير مظهرها.

ثم ينصرف، ونبدأ حديثنا أنا وهو بمجرد أن يدخل سيارته، فيأتي صوته متأخراً عن الصورة نصف ساعة.

ولكنه في زيارته الأخيرة كان جريئاً، لدرجة أنه استأذن معاذ لكي يتركنا بمفردنا لعشر دقائق فقط، لأن موضوعاً هاماً يشغله كثيراً، ويريد أن يناقشه معي. كان يكرر بصيغة حازمة: لو سمحت أمهلنا عشر دقائق فقط..

لو أمهلني راشد قليلاً لكنت ابتسمت، و ابتعت فرحاً يشبه دهشتي بحرصه على أن نكون وحيدين.

لو أمهلني قليلاً لنسيت أمر الكرسيين والطاولة وصينية القهوة التي تجلس بيننا.

كنت أنظر إليه و أعض على ضحكتي، لأن تلك الملامح أقنعت معاذ أن أمراً مهما سيناقش، وعليه أن يتخلى عن تلك الملامح الآن فنحن

Twitter: @ketab_n

بمفردنا. . . ولكنه لم يفعل!

ـ فضة بخصوص مكالمتك لي فجر البارحة!

ـ أمممم. . . لم أفهم. . ماذا بها!

ـ حبيبتي أنت أم أولادي المستقبلية، ولكن أحب أن تكون فضة النقية التي عرفت، وألا تقلدي أحدا مهما كان.

ـ أممم. . . حقا لم أفهم راشد!

ـ أقصد حبيبتي. . . مهما كان حبك لي أتمنى أن لا يتكرر ما دار في مكالمة الفجر!

بدا صوته أكثر حزماً، وهو يصر على أن أفهم:

ـ أنا حبيبتي كنت نائما، والحقيقة حتى انتهاء المكالمة لم أكن أصدق أنك من تتحدثين، لولا مراجعتي لرقمك.

ـ أمممم. . .

ـ حبيبتي لا تخجلي. . . أعني كل ذلك الفحيح والآهات لم تكن تليق بك، وربما قرأت عن هذا، وأردت إسعادي. أتفهم وأقسم لك، لم أشأ أن أوبخك لأني شعرت أنك لا تملكين سلطانا على جسدك في تلك الساعة، أو أنك أتقنت تمثيل ذلك، ولا أخفيك أتمنى حقاً أن يكون تمثيلاً.

استرسل راشد يصف لي كيف أنه سوف يسعد بمشاطرتي هذا الاحتراق، ولكن حين نكون معاً في بيتنا، وليس على الهاتف كما يفعل المنحرفون!!

قال أشياء كثيرة، عن أنه شاب ويتفهم ويعرف ويواكب ولكن علينا ألا

Twitter: @ketab_n

نستعجل هذا الأمر تحديداً، فجماله مرتبط بالفستان الأبيض، وبثوبه و دقلته، وراح يبحر في وصف تلك الليلة.

لم أردّ بكلمة واحدة. . . كنت مندهشة، كمن يقف أمام موجةٍ عملاقةٍ قادمةٍ بطول ستة أمتار، ولم أكن أفكر لحظتها إلا في أمر وحيد. . . لجين مرة أخرى.

لجين تسرق مني راشد هذه المرة! ورغم أنه شيء لا يحفز على السرقة، ولكنه لي بمفردي، ولا أرغب مشاطرتها إياه، حتى لو كان قطعة خبز ملقاة على الرصيف، و تعرض عنها حتى الطيور.

لجين تعود لتقف بيني وبينه، بجسدها المتوثب وصدرها العاري، في معظم صورها تلك. أنا بالفعل لا أحبه، ولا يعني هذا أنني أكرهه، ولكن مهلاً. . . أليس هذا حال معظم المتزوجين؟

استعذت من نفسي، و بدأت أتجنب محادثة راشد حين أكون وحيدة، أصبحت أحدثه بوشوشة على هاتفي، فالوشوشة تعطي مفعولين متضادين، فهي أدعى لأن أركز أنا فيما أقول، وهي تشوش على راشد أيضاً، وتزيد من مساحة غموض الكلمات بيننا.

أقف قرب النافذة عادةً، وبينما أخواتي يدرسن استعدادا للاختبارات النهائية بنفس الغرفة، وعلى بعد خطوات مني، أنهي واجب المكالمة المتعتعة.

هكذا فقط سأحتفظ بشبق لجين ومجونها في داخلي. حتى الزيارات بدأت أتململ منها، وأشعره أن رقابة أهلي تخنقني، بالإضافة أن (السشوار) حرق شعري، وأن أياما جميلة تنتظرنا (بدأت أستعير لغته)

Twitter: @ketab_n

كما وأن الزواج في العطلة الصيفية، وأنا أصرف معظم وقتي في التجهيز لعرسي. بدأت أشغل نفسي بالجلوس مع حازم، الذي يمر بكارثة الثانوية العامة، وعبء اختبار القدرات المقيت.

ما هي إلا أيام مرت في رشفة واحدة. ربما تعمد راشد، بنبله وسمو عقله، أن يؤجل المواجهة إلى حين انتهاء الاختبارات، ليتفرغ الجميع لي تماماً...

رسالة من راشد على إيميلي وإيميلات إخوتي، تلقاها الجميع أول خميس في أول الإجازة:

«أنت يا فضة شيء بمنتهى الدناءة، ولا أطيقك بشراً عرفته يوما عدا أن تكوني زوجة لي... أنت طالق طالق طالق... وسأجعلها رسمية يوم الإثنين في المحكمة و أعدك بذلك»

الرسالة (Reply)، وتحمل بعد عبارته هذه، رسالتي الأصلية لإيميل راشد:

نص عارٍ تماماً. صورة معكوسة في مرآة الحمام، كبيرة وبعيدة قليلا ليظهر فيها الجسد كاملا! وست صور صغيرة تتبعها، لكل جزء من أجزاء جسمي، وبأدق التفاصيل.

صورة بكاميرا جوال ٥ ميجا بكسل... عالية الوضوح إذا!!

Twitter: @ketab_n

عادت كل الهدايا وخاتمٌ محفورٌ عليه اسمي واسم راشد. . . غصة أبي تفتت ضلوعي. يحمل وجهه على كفه، شاردا بنظره، ويكبر أمامي. . . يرتخي خده الأيسر، وتغور عيناه، ويكبر أنفه، ويشيخ بينما ينتظر أن تكمل أمي حصر الهدايا.

أمي تفتح العلب وتنظر بارتباك، وتقول:

ـ بسم الله عليّه. . . الآن فتحتها هي نفسها!

تعيدها وتفتح سواها، لتتأكد أن العلب ليست فارغة، ثم تعيد رصها بيدين وعينين ليست هنا. تنحني بوضع تحذرنا منه، لأنه قد يسبب انزلاقاً! دائماً ما كانت تعود وتحمل الشيء الذي عاتبتنا على طريقة حمله الخاطئة، وتعيد لنا تمثيل الحركة بمسرح الواقعة. تضع يدها في منتصف ظهرها المحني، وترينا كيف أننا قد نتسبب لظهورنا بأذى كبير، إذا ما حملنا الأشياء بطريقة خاطئة. ماذا حدث الآن لكل تلك المعلومات الصحية؟

أبي يضع شماغه بدون عقال، وينتظر أن يوصل الهدايا بنفسه لبيت راشد وأهله. . . المهمة المخجلة التي رفض إخوتي إتمامها.

لا ضرب هذه المرة، ولا بصق، ولا حتى شتائم. هو صمت بحجم

Twitter: @ketab_n

الفضيحة. صمت جاء أكثر مرارةً من كل ضربهم. فحين أُضرب أكون ضحية وحيدة، وحين ينكسر أبي وأمي وإخوتي وأخواتي هكذا! نكون عشرة ضحايا دفعة واحدة!

كنا كألواح ألقت بها أنقاض سفينة قبل قليل، نتناثر بعيدين وقريبين من بعضنا البعض في نفس اللحظة، حتى أنني شككت أن العالم هو نفسه خارج هذا البيت.

ـ لا أظن أن أحدا سيرغب به...

كانت أمي تهاتف أبي، وهو في طريق عودته من بيت أهل راشد، وتحاول أن تنهي المكالمة سريعا:

ـ في أمان الله يا أبو عبد الله.

يتشبث أبي بالكلام، يطبطب على الوقت لا أكثر، وأظنه يريد أن ينسى.

ـ لا... تعال أنت وسأحضر لك شيئاً خفيفاً، تأكله مع أدويتك.

تتذمر أمي، ويبدو أن أبي يلح على فكرة عشاء عائلي، ويستعجل الشفاء مما نحن فيه.

ـ والدكم يسألكم... هل ترغبون في عشاء من أي مطعم في طريق عودته إلى البيت؟

كانت تسأل مرغمة من قبله. لا تزال تتململ ممسكة بسماعة الهاتف. حين ضاق عليها المكان، علا صوت صراخها فجأة:

ـ هم لا يردون حتى، لا أحد يحترم أحدا في هذا البيت، لا أحد يرفع عينيه ويجيب على هذه الأم الجاهلة، لا أحد يرد، لم نربهم، لا نعرف

Twitter: @ketab_n

كيف نربي. . .

ما أصعب أن تجف منك نعمة الصبر، وأنت في منتصف طريق الاحتمال.

كان بكاؤها كسيل قادم من جبال بعيدة، يجرف أحمالاً ورواسب قرى. اجتاحت صمتنا وتفكيرنا رواسب أمي، وعوالق تركتُها لها بنفسي بعناية فائقة.

يبدو أنها تدرؤها عنا منذ البدء، فهي تفتش لي عن مخارج منذ بدأت المشكلة هذه، ولكنها تفيض الآن بما سكتت عنه.

رنا قامت إلى أمي وحضنتها، وحاولت أن تهدئ من انحدارها، قبل أن تتكوم إلى جوارها باكية هي الأخرى. عبير تبعتها، أمي وأخواتي ومن تبعهن بعد ذلك من الصغيرات، كن ينجرفن في سيل أمي الكبير.

بكاء أمي، كان ندبة تلك الليلة بلا منازع، كانت تنتحب بصوت عالٍ. وإذ أقول بكاء أمي، فهي لأنها ليست ككل الأمهات، فقليلاً ما تبكي. آخر مرة رأيتها تبكي، كانت وقت بلوغي ربما. لم أر دموعها حتى حين كان جدي يقيم معنا، وكنت أعجز حقاً عن فهم بذاءة لسانه، وقبح تعامله معها هي بالذات!!

هي تعد ثيابه، تحضر طعامه المسلوق، وتحقنه بإبرة الأنسولين، متجاهلة صرير أسنانه وهو يشتمها. . .

لم يسبق أن سمعتها تقول (لا) في وجهه.

آاااه. . . تعديل!! ربما تقول: لا. . . اطمئن لم أضع ملحاً. لا. . . هذا الغطاء ليس خشن الملمس. لا. . . لن أنسى موعد الدواء. نم يا

Twitter: @ketab_n

عمي الآن.

لا أذكر أن أي (لا) أخرى قد خرجت من فمها أمام جدي!!

ولكني مذ وعيتها، كانت تُلمع كل زجاج المنزل بملمع الزجاج الأزرق المعتاد، وحين تأتي على صورته توفر منظف الزجاج، تضعه جانباً، تلتفت سريعاً في كل اتجاه، تنسى أن تنظر إلى الأرض حيث أتربع وأراقب، وتستعين ببصقة قوية تصبها على الصورة في البرواز، ثم تمسحها بعناية لافتة!!

Twitter: @ketab_n

معاذ يجلس إلى جوار أبي منذ ساعة تقريبا. لو كان عبد الله لتوقعت أنه ينصحه بقتلي!

ولو كان حازم لقلت أنه ينصحه (بتهكير) جهازي، ومتابعة سير تحركاتي على الشاشة (النتية) عبر قرصان محترف.

ملامح أبي مشدودة تماما لكلام معاذ! يبدو أنه يوشوشه عني، فلم يعد يلفت أبي أي شيء هذه الأيام غير الحديث عني، ووظيفة شاغرة ينشغل الجميع بالبحث عمن يملؤها: تهذيبي!

أمي تحرك ملعقة الشاي في كوب أبي قبل أن تضع السكر حتى، ويبدو أنها مشدودة هي الأخرى لما يقوله معاذ. تحدق في عيني أبي مباشرة، وتنتظر ما سيسفر عنه كلامه، لتتبناه فوراً ودونما نقاش كعادتها معه.

ـ لمْ تضع السكر في الكوب... هل أنت متأكدة؟

وجه رنا كان مهتماً وهي تسألني، بينما كنت أنقل لهن نقلاً مباشراً ما يحدث في الخارج.

ـ هذا كل ما لفتك من كلامي يا رنا... فقط إن كانت أمي وضعت السكر في فنجان أبي أم لا؟

لا أعرف بالمعنى الدقيق ما الطريف في هذا الحوار؟ هل كانت نظرات

Twitter: @ketab_n

عبير التي قفزت من وجهي إلى وجه رنا، وكأنها كرة التنس المطرودة من كل مكان؟ ولكن نوبة ضحك ودموع، وعدوى فرح نشطة، اندفعت بيننا في ثوانٍ فقط.

في حياتي خصصت مقعداً واحداً للأمل، أنفض عن ثوبه ما يتربص به من الغبار ببعض الغناء، فصوتي جميل، ويكون أجمل حين أغني:

بلا ولا شي

وحدك بلا ولا شي

بلا كل أنواع تيابك

بلا كل شي فيه تزيين

بلا كل أصحابي صحابك

السّقلا والمهضومين

تعي نقعد بالفيّ

مش لحدا هالفيّ

حِبّيني وفكّري شوي

. . .

تعي نقعد!!

وقعدت. . .

وحين تعبت من الجلوس وقفت ثانية، واقتربت رافعة رأسي للأعلى، لأقرأ التوقيت في لوحة مغادرة الرحلات من مطار الوجع. . . الوجع الذي يلتهمني أغنيةً أغنيةً!

Twitter: @ketab_n

وحين صعدت إلى الطائرة أخيرا، سبقتني حقيبة مسافر وتربعت على مقعدي. بحثت عن كرسي آخر من باب التهذيب، وحين هممت بالجلوس، وجدت حقيبة أخرى تسرق المكان مني!!

تلفت قليلاً لكي أدرك من الفاعل، ودون أن أحدق للأعلى تساءلت:

ـ كيف تلعب معي لعبة الكراسي وأنا لست نداً لك؟! ثم... لمَ تنتهك قانون اللعب الأقدم، وتبدأ اللعبة دون أن تخبرني حتى!!

هل أذيع سرا، إن قلت إنني أعشق اللعب مع ملاك وفرح؟ فرح هي الأكبر، ولكن الأقل دهشة، فهي تلعب الألعاب كما هي ولا تضيف نكهتها الخاصة كملاك، التي قد تفتح قلم لون أحمر مثلا، وتنزل إلى جواره إسفنجة قلم تلوين أصفر، وتعصرهما معا في الأنبوب الضيق، وتكبس الغطاء عليهما، بعد أن تكون قد خسرت نصف اللون على يديها وملابسها، ثم تبدأ في الرسم وتفتش بعينيها الصغيرتين عن بداية اللون الأحمر أو الأصفر من هذا المزج القهري.

هي أيضا ترى أن ذقن أبي، المتفاوت لونها بين الأسود والأبيض، إنما هي سواد ملطخ ببعض اللبن. لذا لا تنفك تقول له:

ـ امسح اللبن من هنا، ومن هنا...! وتشير بأناملها الصغيرة لأماكن الشعرات البيضاء في ذقنه.

وفي هذه الحجرة الصغيرة قد تبدأ حروب لا تطفئها إلا تدخلات أمي، وليست للأسباب المعهودة بين الأطفال!

فمثلا ترسم فرح نقطة صغيرة في طرف الورقة البيضاء وتقول لملاك:

ـ هذه النقطة أنت لأنك أصغر مني سنا. وتفرد أصابعها الصغيرة

Twitter: @ketab_n

النحيفة، لتقنعها أن عمرها خمس سنوات، وتشهر في يدها اليسرى ثلاثة أصابع، لتقول لملاك إن عمرها ثلاث سنوات فقط!

ثم تقرب اليدين الصغيرتين من بعضهما، وتشير للكف الأيمن بوجهها وعينيها الواسعتين، وهي مفاخرة بكثرتها، لتغيض ملاك لأن الخمسة أكبر من الثلاثة.

ملاك في بنيتها ممتلئة، وتبدو ضخمة أكثر فهي كأبي وأخي عبد الله ومعاذ، و تتفوق على فرح القصيرة الهشة كباقي أفراد الأسرة، ولكن الأسبق في العمر هي فرح، وهذه نقطة الخلاف بينهما دائما، وفتيل حرب (النقط) ينشأ هنا. تأتي ملاك على ورقة أخرى وترسم نقطة لا تكاد ترى وتقول لفرح:

ـ هذه أنت. . . أنت أقصر مني!

وتضم السبابة والإبهام معاً، وكأنها تقبض حبة عدس وهي تقول لتغيض فرح، التي لا حول لها ولا قوة في خذلان جسدها الضئيل لها:

ـ هذه أنت.

هنا، وفي هذه الغرفة الوردية، تقوم الحروب دائما، وتوقّع أكذب وأجمل الهدنات.

ـ أبي يريدني؟!!

حركت أمي رأسها إلى الأعلى والأسفل، وكأنها تستكثر علي كلمة نعم، فيما هي تبحث عن ملابس متسخة في حجرتنا، تلتقطها من فوق الشماعة، ومن بين الأسرة، دون أن تنظر إليها حتى. تراكمها فوق يدها اليسرى، لتضيفها لهرم الملابس، الذي تكوم أمام باب حمام الغسيل.

Twitter: @ketab_n

مررت بالصالة عبوراً بغرفة إخوتي. . . معاذ ذو الاقتراح البارحة ينظر إلي، بينما يداه تسطر أحرفاً على الكيبورد. حازم كان منكباً على كتابة رسالة في هاتفه، ربما يحاول التشاغل عن نتيجة الثانوية التي ينتظرها الجميع هنا. تجاوزت حجرتهما، وحجرة عبد الله المغلقة منذ خطبت له أمي قبل انفصالي أنا وراشد بقليل، أصبح لديه في غرفته بعض الصور لإيمان. هو لا يثق بأحد ويظن أن حازم ومعاذ قد يسترقان النظر نحو تلك الصور، ورغم أنه يخفيها في مكان ما في غرفته لا نصل إليه حتى نحن أخواته، إلا أنه أيضاً يغلق باب غرفته كلما غادرها، انصياعاً لغيرته الشديدة، والتي يبدو أن إيمان أحبتها بادئ الأمر.

وجه أبي مطمئن، وابتسامته دافئة. هي الملامح عينها حين أخبرنا بموت أخي، الذي حملت به أمي بين فرح وملاك. . . حينها أكملت أمي شهرها الثامن، وبسبب ضغطها العالي العصي على الهبوط، توفي أخي في بطنها.

ارتسمت على وجه أبي نفس الملامح هذه حين قال:

ـ الطفل مات، وأمكم ستنوم أسبوعاً كاملاً، حتى يتم ضبط ضغط الدم، ولتتعافى من العملية القيصرية التي أجريت لها.

أحييك ثم أحييك يا أبي على هذه الملامح!

لم أبتسم يومها، رغم أنني سئمت كثرتنا في البيت، ولم أحزن أيضاً حين عرفت بموته. ضايقني فقط أن أبي كان يبتسم، ولونه لم يتغير وهو يقول الخبر.

ألم يكن هذا الذي مات ختماً ثامناً، يثبت به مروره على أرض

Twitter: @ketab_n

الخردوات هذه؟ لمَ لم يبكِ، وكنا سنعذره، أو يحتفظ بوجه بدون ملامح على الأقل فنقول إنها الصدمة! لمَ يبتسم، ثم يزف صفعةً لوجوهنا المصغية إليه ببرٍّ كبير، كخبر أن أمي ستغيب عن البيت أسبوعاً كاملاً!

لم لا يتعلم وهو الآن في الستين من عمره، كيف يصنع له وجهاً مناسباً لمثل هذه المواقف؟!

ـ من مات الآن؟!

Twitter: @ketab_n

هذه العيادات تبث الراحة في النفس! اسمها (الكادي)، وهي فعلا كالكادي في بياضها ونظافتها. لها ممرات كثيرة، ولا أظن أن مريضا قادر على رؤية مريض آخر... إنها تغلف مرضاها بعناية فائقة.

ـ لم يجب ألا أرى مريضا آخر يا أبي؟

ـ لأنها عيادات طب نفسي... قالها وهو يضع يده على كتفي، ويربت بهدوء، مشفقا على ما آل إليه حالي.

أتفهّم نظرة أبي الخجولة للطب النفسي، وأتوقع أن يخفي وجهه كله هذه المرة، وليس أن يتلثم وحسب، كما كان يفعل في زياراتنا للشيخ علي، وربما أرسل معي أمي إلى هناك. ولكن ما لا أفهمه كيف أن معاذ أيد زيارتي وجلساتي عند الشيخ علي في المرة الأولى، وظن أنني ملبوسة بجني ما، ثم كيف أنه هو من اقترح هذه المرة عيادات الكادي للطب النفسي... هل يرتقي معاذ في حلوله، أم يجرب فقط كل ما لديه!!

أي نوع من الأمراض تسكننا يا معاذ؟

عيادات (الكادي) تقع في حي راق من جدة. أستطيع أن أكون خلال خمس دقائق مشياً على الأقدام في قلب الحمراء النابض، من المبهج أن تمر من هنا يومين أو أكثر في الأسبوع.

Twitter: @ketab_n

الطريق إلى (الكادي)، لا يشبه الطريق إلى فيلا الشيخ علي، والتي تقطن في حي لا يبعد كثيراً عن مقبرة الفيصلية.

المكان هنا يبشر بالحياة، الشوارع ولوحات الإعلانات، المقاهي وواجهات الماركات العالمية، التي لم ولن أشتري منها يوما. ولكن الطريق مبهج لدرجة أنني صادقت نهاراً ذات مرة، و أردت أن أحتفظ له بصورة كما يفعل الأصدقاء دوماً، فوجهت كاميرا هاتف أمي لوجهه، ومسحت غبش الغمام عن جبينه، فلم ينظف تماماً. عدت فمسحت زجاج السيارة بمنديلٍ مبلل، ولكن الغبش بقي عل وجهه، رغم أن الماء انحدر دموعاً حتى أسفل النافذةِ حينها.

الحقيقة لا أعرف كيف تكون جلسات الطب النفسي، ولا كم مرة سأمر من هنا في هذا الأسبوع والأسابيع التي تليه، ولكن علي دائماً، كنهج حياة تعودته، أن أتوقع الأسوأ، رغم هذا العبور اللذيذ بحي الحمراء، وبما تبقى من وجه العروس الجميل.

أحببت فكرة أبي عن سبب تسمية العيادة بهذا الاسم، وبغض النظر إن كانت عيادة بنفَس جنوبي (كالكادي) ذي الطبقات المتعددة حفظا للعطر والسرية، أو كالحمراء الجداوية وأسواقها الصاخبة ومقاهيها ذات الطابع الغربي.

تذكرت الآن دخول أمي علي أنا وحازم صباحاً، حين كنت أُواسيه على موت مستقبله، إن لم يسعفه ببعض الدورات التدريبية (المكلفة مادياً) فسيموت على بلاط نسبة لم تتجاوز ٧٢ ٪.

حينها دخلت وهي تصرخ:

Twitter: @ketab_n

ـ سأقولها مرة أخرى، وبصوت مرتفع هذه المرة، ما ستقوم به اليوم هو الذي سيحدث فرقاً معك غداً. أأ عُيدها عليك مرة ثالثة، لعلك تفهم أو تحس؟

قالت هذا بنوع من الاستسلام، وهي تغلق الباب خلفها بشدة.

حازم لم يرفع عينيه عن شاشة الكمبيوتر وهو يقول:

ـ أنا لا ألومها يا فضة، فأمي تغدو عصبية أكثر حين تسألها إحداهن عن مجموعي، ولا ألوم أبي حين بصق على وجهي البارحة، فأنا وصمة العار هنا على كلٍ!!

تنحنحت أنا بدوري، فأنا لازلت أحمل الرقم واحد في موضوع العار هذا.

لم أرد أن أُذكره، ولكن فكرت أنني بهذا أخفف عنه بعض وجعه ليبتسم. . . . و ابتسم:

ـ على كلٍ ليست المرة الأولى. . . (قالها حازم بلهجة حزينة وبكثير من الانكسار) وعلى فكرة أيضاً لا ألوم هديل لأنها تزوجت، ضاربة بحبنا عرض الحائط، فكم ستنتظر؟ ولا ألوم من سافر ليكمل دراسته من أصدقائي، أنا فعلاً لا ألوم أحداً على حالي هذا يا فضة!

دام صمتنا طويلاً، كنورس كهلٍ تجعد ريشه بمحاذاة البحر، يفكر كثيرا، ولا يستطيع أن يبلل ريشه بقطرة واحدة!

كل منا يغوص في ملحٍ نهم، يتآكل فوق وجعه، وجع سيرافقه كعاهة، لا يسعنا إلا التدرب على التعايش معها بكل حواسنا.

نفض رأسه تأهباً للواقع، فطار وجعه ووجعي بالتبعية (ولكنه كالذباب

Twitter: @ketab_n

سرعان ما يعود مشتاقاً إلينا)...

ـ عودة إلى حديثنا فيما يخص سيارتي، إن كنت لازلت تسألين فأنا أحسن المظهر العام لها فقط، أضيف مقعداً فاخراً، أو أغير شكل الباب ليفتح للأعلى بدلا من الجانب. بالطبع الرسومات عصرية ويمكنك أن تسألي في الإنترنت عن جديدها، والسيارة ليست مسخاً كما يقول أبي.

كان يتحدث وكأنه ليس تلك الحنفية التي تقطر وجعاً قبل قليل، كانت عيناه تلمعان فرحا:

ـ عموما اللمبورغيني الإيطالية ليست هدفي يا فضة، مع أنني أستطيع، ولكني أستمتع بهذا كثيراً حتى الآن.

كان حماسه يدفعه لأرجحة كرسيه في كل اتجاه، يدور فيختفي وجهه، ولكن صوته يفضح ابتسامته في الجهة الأخرى. يكمل الكرسي دورته أمام وجهي مباشرة، ليصبح وجهه بموازاة وجهي، وراية ضحكته ترتعش:

ـ أنا على يقين أن تلك اللمسات ستعجبك!

ليست أول مرة أعرف فيها عن علاقة حازم بـ «نادي جدة بويز»، ولكن لم أكن أظنه مولعا لهذه الدرجة. ظننته يهرب من الدراسة لا أكثر!

رد على نفسه كمن يوقظ قدميه ليسير:

ـ وعلى كلٍ، أنتظر اتصال أحدهم إن كان السعر يناسبه، لأبيعه سيارتي. لم أفكر يوماً في بيعها... (قال هذا وهو يربط على باب عينيه دمعة، وعلى طرف شفاهه آهةً) ولكن أظن دخولي على أمي وأبي بمبلغ كهذا، تاركاً موقفاً مناسباً لسيارة أبي أمام البناية، وبعيداً عن ذاك المسخ

Twitter: @ketab_n

الذي لا يطيق النظر إليه كل صباح، سيغير نظرتهم إلي قليلاً. أعرف أن أبي سيقول «كلب حي أفضل من سبع ميت»ولكني سأحتفظ بكلمة حي في مجمل الأحوال، وأتخلى عن كلب.

ضحكنا معاً على وجعنا، ضحكنا كي لا يشي بنا الفزع، حين يدرك إننا لا نعرف إلا القليل عن نفسينا، مهما بدا لنا الأمر عكس ذلك.

بعدها ببضعة أيام دخل حازم غرفتنا. حين بلغ سريري كان قد كبر عشرة أعوام، فوق التسعة عشر التي يحملها:

ـ جاني اتصاله يا فضة، لم أفرح بالطبع فهو سيشتري سيارتي، ولن أتراجع عن كلمتي فأنا رجل. على بعد بضعة أمتار من بيت شاريها سأتركها... أتصدقين؟!

كان يركض بكلامه، قبل أن ينز جرحه، فيجبره أن يصوم عن الكلام.

ـ كانت إنجازي الوحيد يا فضة، كُنت قد نسيت كيف كانت حياتي قبل أن أبدأ في إعادة تشكيلها وترميم عيوبها، البعض يسميني طبيب تجميل!! أنا لا أبالغ... كنت قادراً على أن أبهر الجميع دائماً، بما يمكن أن أفعله، أو أقترحه لتغيير سيارة ما.

عرفت فيما بعد أن الرقم الذي وجدته فوق مكتب حازم «١٠٠١٩»، هو رقم سيارة الأجرة التي أقلته إلى البيت بعد أن باع سيارته. أخبرني أنه لم يكن مألوفا لديه أن يركب سيارة أجرة، فلفته الرقم المعلق خلف مقعد السائق وسجله من باب الذكرى.

قال في دهشة:

ـ لا أعرف هل هي صدفة أن يكون عمري ١٩، متطابقاً مع آخر رقمين

Twitter: @ketab_n

على هذه اللوحة، أم علامة لشيء ما ينتظرني! كأني وصلت هذا العمر في هذه اللحظة فقط.

Twitter: @ketab_n

يصدف أن اليوم الثلاثاء، هو موعد التجمع الشهري لأبي مع أصدقائه، ويوم فراق حازم لأغلى ما يملك. وبالمناسبة التجمع اليوم في بيتنا. . . لعل المبلغ الذي يسكن جيب حازم مؤقتا، يكفر عن عدم تواجده مع أبي، لصب القهوة والمباشرة على ضيوفه.

يصدف أيضا أنه موعدي الأول في عيادات الكادي مع الدكتور سعد.

على مدخل بوابة العيادة، بعد أن تتجاوز ست درجات مروراً إلى الدور الأرضي حيث العيادة، قرأت بخط عثماني أنيق الآية الكريمة المدونة في الأعلى:

«وإذا مرضت فهو يشفين»

ـ أنا مريضة إذا!!

لا أعرف لم تذكرت فيلا الشيخ علي، ورعبي منه حين قام بإشغال أبي عني بشراء قنينة زيت، بينما يده كانت تجوس في لحمي. . .

لم أبك يومها ربما؟ لكنني أبكي الآن ولا أجد لهذا تفسيراً، العيادة جميلة ومؤثثة بشكل أنيق. حسنا ليس كما في عيادات الطب النفسي في الأفلام، ولكنها تبدو مريحة، فلمَ أبكي؟

أمي تفتش عن سبب لتبكي منذ عرفت بنسبة حازم، حسناً هي لا تبكي

Twitter: @ketab_n

كما قلت دائما كمعظم الأمهات، لكن هاهي تتغير قليلاً وتقدم نفسها كأم بكاءة. وها أنا أقدم نفسي سبباً بسيطاً ومنطقياً لها، لذا تبكي هي الأخرى بحرقة، تحدق في شاشة هاتفها حيث يوجد ست مكالمات من أم لؤي، و لؤي يشتعل تفوقاً، وهو بالمناسبة يشارك في بطولات السباحة، وفاز في مسابقة شعرية في المدرسة، وهو يصغر حازم بسنتين ولكنه معه في نفس المرحلة.

هو باختصار الفتى (السوبر) الذي تتمناه كل أم، ووالدته تريد أن تطمئن على نتيجة حازم، وأمي تصر أنها تريد أن تشمت بها:

ـ تشمت بنا وبحالنا وبحال أولادي وحظوظهم السيئة. . .

أمي تشركني في أي وليمة ندب وبكاء، لا تستثنيني أو تنساني بأي حال من الأحوال. .

الحمد لله. . . شكراً أمي.

لم يطل انتظارنا، فلم يكن هناك سوانا. فهمت فيما بعد أن لكل مريض موعده المخصص، كي لا يجد حرجاً من مرضى آخرين، وكي لا تسوء حالته، أو تتزعزع ثقته بطبيبه، تأثراً بأهواء ومناقشات المرضى، التي قد تجري في غرف الانتظار عن طبيبهم المعالج، وطرق علاجه.

نادت الممرضة علي، وطلبت من أمي بهدوء أن تتسلى بالمجلات، أو أن تمضي للأسواق المجاورة فمدة الجلسة تسعون دقيقة، وقد تسأم الانتظار هنا.

سلمت أمي على الطبيب من أمام باب عيادته، وهي تحاول أن تقرأ وجهه وسنه وميوله ونشأته، وهل هو متزوج وأب، أم أنه ليس كذلك!!

Twitter: @ketab_n

استجمعت مناديلها المتناثرة بين يديها، وتمخطت علناً على غير عادتها الأنيقة. ربما أرادت أن تقول بهذا أننا عائلة قذرة، فلا تطمع في ابنتي!!

دفعت بي إلى العيادة وطمأنتني أنها تنتظر بالخارج، في حال احتجتها، بينما لم أكن قلقة أساساً، إلا عليها هي من خلوتها مع أفكارها.

كل الترحيب والتسهيل الذي مارسه الدكتور سعد، لم يجعل منه إنساناً تطمئن له من أول نظرة، كما يجري عادة في الأفلام الأمريكية، حين يكون الطبيب النفسي شابا جميلا، أو عجوزا أقرع يحفظ مقولات تبعث الأمل لغاندي وكنيدي. . . .

قال:

ـ وجهك أحمر ويبدو عليك أثر البكاء، أكنت تبكين في الخارج؟

أردت أن أقول أن ممرضته أخبرته بحالة النحيب، التي اعترتني أنا وأمي في استراحة المرضى فلا حاجة له للتمثيل، ولكن وجدت أنني لست ملزمة بتبرير هذا الشأن العائلي أمامه، وأردت حقاً أن أعتذر له عن تصرف أمي الغير لائق، وأن أوضح له أنني أجهل سبب تصرفها هذا، ولكنه بادر بسؤاله الأول لي:

ـ لم جئتني يا فضة؟

كانت الإجابة سهلة ومتوفرة ولكنها لم تخرج من على شفاهي، كانت بعيدة، في مكان مظلم بداخلي، تقف حيث تحيط بها أغصان وأشواك كثيرة.

أنا أراها وأعرفها جيدا، ولكن لا أستطيع أن أخرجها من حيث هي محشورة.

Twitter: @ketab_n

وجه الدكتور سعد لا يبعث على أي شيء، وجه أسمر بأنف متواضع، وعينين باردتين، وذقن ملساء خفيفة. وجه عادي بكل المقاييس.

لربما خاب أملي، حيث أنني حلمت البارحة بطبيب يشبه الممثل (هشام سليم) في مسلسل سري للغاية.

ـ ألا تعرفين يا فضة سبب قدومك هنا؟

لم أعرف بماذا أرد، رغم أنه سؤال عادي! كنت أرد بطريقة أسرع في حضرة الشيخ علي. هل هي هيبة الشيخ التي دفعتني للإصغاء والتجاوب بشكل أسرع مع كل أسئلته؟

هل أنا الآن كتلميذ نشأ لأبوين مدرّسين، ويعرف تماماً أنه يقف أمام معلم، مشاكله تشبه مشاكل والديه في المنزل، ومخاوفه من عواقب قسوة توبيخه تلميذاً قد تكلفه وظيفته، في مدرسة تحرم الضرب هي ووزارتها، وتقف مع الطالب لأن خلف الطالب أهلا ومجتمعا كاملا، أما المدرس فأعزل، يقف خلفه الآلاف من المدرسين العُزل، لذا أتهاون في احترام السؤال بإجابة ما تنصفه؟ نعم... لا يمكن أن يكون الطبيب شيخا، حتى لو حاز كل شهادات الدنيا!!

صمتي يقلقني، لم أخطط له، ولست أتعمده، ولكنه يتربع فوق شفاهي ويتعمد إحراجي.

نظر الدكتور سعد في أوراقٍ، بالتأكيد هي الأوراق التي قام أبي بتعبئتها، حين حضر لملء استمارة المريض في المرة الماضية. سمعته رنا يقول هذا لأمي، ويخبرها أنها أسئلة دقيقة جداً، لدرجة أنه كان يستفسر من الممرضة عن مغزى كل سؤال، ليتبين إن كان فهمه فهماً

Twitter: @ketab_n

صحيحاً!

حنى الدكتور ظهره ليتكئ فوق فخذيه، بيديه التي حملت وجهه فوق قبضتيه. تراكم بعضه فوق بعض، محاولا أن يبين كم هو مصغ وطيع، ومسالم جداً:

ـ يا فضة، علينا أن نتحدث... لا تفكري بماذا ستجيبينني؟ أجيبي بما تشعرين وحسب... اتفقنا؟

أظنني هززت رأسي علامة الموافقة، فوجه الدكتور سعد يبدو كمن حصل على إجابة أخيرا.

ـ إذا.. لماذا جئتني يا فضة؟

حين أكمل سؤاله كنت كماء اختبأ تحت أظافر الشجر طويلاً، كان الدكتور سعد يتراقص في ماء عيني، تسللت دموعي، كأنني كنت في سجن يحلل كل شيء عدا الدموع، وخرجت منه للتو.

لم أنتحب، ولا أظن حتى أن فمي ارتعش، أو أن ملامحي تغيرت، كان مخاض عيني فقط. دموع تتفجر، وتتسلل في كل اتجاه، متروكة على وجهي، لم أمد يدي حتى لأمسحها، سالت حتى ظننت أن عيني ستسقطان بعد قليل، كحبات عنب ذابلة على رخام هذه الغرفة الخرساء، و المحرضة على بكائي فقط.

ناولني من ثلاجة صغيرة قرب مكتبه، عصير ليمون أضاع (المزاز) خاصته، فتش في ثلاجته متذمراً من ممرضته المهملة، التي تتجاهل تعليماته، وتنسى أن تملأ الثلاجة بما يطلب منها!

إذا أنا لست التلميذة الوحيدة التي لا تحترم تعليماتك يا دكتور سعد!!

Twitter: @ketab_n

بعد انقضاء التسعين دقيقة أو لعلها أقل قليلاً، مابين صمتي وبكائي، دوّن لنا الدكتور سعد موعدا آخر بعد يومين، وسألني بكثير من الاحترام إن كان يناسبني؟

خرجنا من هناك عائدتين إلى البيت، وأمي في حالة من العتب الشديد على الدكتور سعد، لإجابته بالرفض القاطع حين سألته:

إن كان هناك من (ورد) من القرآن أو أذكار، علي أن أقرأها كل يوم، أو عقب كل صلاة!

Twitter: @ketab_n

اليوم الثلاثاء موعد (ثلوثية) أبي وأصدقائه، وستكون في بيتنا هذا الشهر. أبي مدير مدرسة متقاعد، وضيوفه هم مدرسون عملوا تحت إدارته لسنوات. لازال البعض منهم يناديه أستاذ سعيد، والبعض يناديه أبو عبد الله، وآخرون ينادونه بكنيته أو اسمه مرفقا بالشتائم.

أبي في حالة استعجال دائم. أمضى شبابه وعمله يستعجل الغد، ويمضي سنوات تقاعده وهو يستعجل كل يوم بيومه... كل ساعة بساعتها. محبته هاجعة ولكنك تشعر بها بلا شك.

عبير ورنا يقمن الآن بتنظيف وفرك وتلميع كل شبر في مجلس الرجال. ستبدآن بالنوافذ ثم الستائر ثم الزوايا خلف الأرائك ثم الأرائك نفسها ثم المفارش والسجاد فالطاولات والدواليب... قبل مغادرة المجلس سينحنين ليبحثن عن شعرة، قد تكون تمردت على رؤوسهن وسقطت على المفارش أو الطاولات. ثم سينتقلن إلى حمام الرجال ومغاسل الضيوف، وسيقمن بغسلها وتلميعها ومسح قطرات الماء من على الصنابير والمرايا، حتى لا تترك خلفها بقعاً. هذا فيما يخص النظافة.

أما فيما يخص القهوة والضيافة الملحقة بها والعشاء وتوابعه، فهذا شأن

Twitter: @ketab_n

خاص بأمي، ولا علاقة لنا به إلا في نطاق ضيق ومحدود جداً.

منذ دخولي البيت وتعليق عباءتي، تحتم علي أن أكفر عن غيابي عن طقوس التنظيف تلك، وعلى إيقاع مهراس الهيل بين يدي أمي، أوكلت إلي مهمة تجهيز فناجين القهوة وكاسات الشاي، وتنظيفها وتلميعها ومسح أي قطرة ماء قد تترك أثرا فوق صفائها، ويليها تجهيز صوان التقديم والمصافي وبراريد الشاي. هذه المهمة رغم محدودية نطاق الحركة بها، إلا أنها أهم وأدق مما عملن به أخواتي أثناء غيابي. لعلي أبالغ هنا قليلا!! لا يهم.

في المساء وحينما كنت أضع الفطائر الساخنة، وبراد الشاي أمام طاولة قريبة من مجلس الرجال، حتى تصبح في متناول يد أبي حينما يقرر أن يضيف ضيوفه بها. رأيت حازم يخرج مبلغاً من جيبه، ويطويه بكفه، ويهذب شعره، ويتأكد من رائحة ثيابه.

كان أبي حينها يقف على مقربة من مدخل الضيوف لمجلس الرجال، حين هرع لأخذ الفطائر قبل أن تبرد، بإيعاز من رنة ترسلها أمي بالمحمول مفادها أن ضيافة عليها أن تقدم الآن، ليستأذن ضيوفه ويخرج مسرعاً كما هي عادته على الدوام.

قبل أن يفرج أبي عن لسانه المحبوس بغضب بين فكيه، لتأخر حازم عن العودة إلى المنزل قبل موعد ضيوف أبي، حيث أنه الوحيد المتاح اليوم، فعبد الله يزور خطيبته، ومعاذ ذهب إلى المدينة برفقة أصدقائه منذ أول الأسبوع، دفع حازم بالمبلغ إلى يد أبي، وقال:

ـ هذا المبلغ دبرته من سيارتي، أنا رجل ووعدتك أن. . . .

Twitter: @ketab_n

تفاجأت كم تفاجأ حازم بأبي، وهو يعيد يده بما تحمل إلى جيبه وهو يتلفت كلص. كان لا يزال محافظاً على تجهمه، لم يبتسم ولم يرض، وكأنه عاجز أن يتصرف بطريقة أخرى، ولعله كذلك!

قال وهو يهمس:

ـ ادخل الآن واعطني إياه أمام الجميع!

وسبق حازم مسرعاً، متربعاً وسط المجلس، ناسيا الشاي وتوابعه قربي.

انتظر حازم دقائق، عدل كم قميصه فيها استعداد للدور المرتجل الذي وضعه أبي له، ويبدو أنه يجهز بعض الأجوبة عن صفقة البيع تلك.

حين دخل المجلس، رحب به أبي بصوت عال مثير للانتباه، رفع يده يفرك السبابة والإبهام معاً على مرأى من أعين الجميع، وعلى مرأى مني ومن عبير... نحن الأعين المراقبة من خلف الأبواب:

ـ ها بشر... استلمت الراتب؟

كان هناك تباهٍ لم أره على أبي منذ فترة طويلة... أي راتب وأي وظيفة يحاول أبي أن يلصقها بحازم؟!

أخرج حازم المبلغ كما طُلب منه، وناوله إياه، وأنا أنظر إلى عيني أبي مباشرة، محاولة أن أفهم منه ماذا ينوي أن يقول.

تعالت الأصوات:

ـ ما شاء الله، ما شاء الله... توظف حازم، الله يحفظه وإخوانه.

سلم حازم أبي ظرفا يطوي شغفه، وأدار ظهره مستأذنا، تاركاً لأبي حرية المراهنة عليه ولو كذباً.

Twitter: @ketab_n

تابع طريقه إلى حجرته منكسرا، شارداً.

أنا على يقين تام، أنه انصرف وهو مهموم براتب الشهر المقبل.

Twitter: @ketab_n

ـ الطب النفسي حالة من نضوج الوعي، عليكِ أن تقتنعي به، وتدافعي عنه إذ لزم الأمر، ولا تأبهي بمن ينظر إليك على أنك مجنونة! فأنت فقط تقومين بغسل روحك تماما، كغسل ثيابك ومستلزماتك الشخصية لإعادة لبسها. نحن نتوقف عن غسلها فقط إذا ما قررنا أن نتخلص منها. هل تشعرين بهذا يا فضة؟ هل تجرئين على قول هذا لصديقتك داليا مثلاً؟

أسئلة الدكتور سعد سهلة جدا، ولكني لا أجيد الإجابة عليها علنا!

أكون غائبة في جسدي، وأبوح له بأشياء لا أعرف من أي ذاكرة حضرت، لا أدري حينها ما أرى، أجدني في مرات كثيرة أبكي وأنا مندهشة وأبرر هذا بقولي:

ـ لا أعرف لمَ أبكي يا دكتور؟

في الزيارة الأولى استأذنني أن يسجل المحادثة، لأن ذلك سيخدم خطة علاجه لي، وهي محادثة بمنتهى السرية وستتلف الأشرطة بمجرد اقتناعه بعدم حاجته لها في علاجي.

في البدء كانت تربكني، ثم مع الوقت صرت أنظر إليها بصمت، ثم

Twitter: @ketab_n

في تطور لاحق، ما إن يضغط على علامة التسجيل حتى ينطلق لساني!!

في اليوم الذي يكون لدي جلسة، أعود إلى البيت سعيدةً خفيفةً، أشعر بعافيةٍ ملموسةٍ، رغم أنني لا أشكو علةً ظاهريةً على الأقل.

أجدني منذ أخرج من باب العيادة بحالة سلام مع كل هذه التناقضات من حولي، وأجد ذريعة وعذراً مقبولاً وكأنني الطُهر عينه:

أسامح أمي لأنها كانت ترفض أن تشتري لي جوارب قصيرة، فأضطر للف جواربي الطويلة من الأعلى، حتى تصبح أسفل كاحلي، مثل صديقاتي في المرحلة المتوسطة. كانت ترفض لأنها لم تستوعب لمَ تشتري جورباً قصيراً مكثفاً بحجم القدم فقط، بينما الطويل متوفر وبنفس السعر!

أبتلع نكتة أبي البذيئة، التي التقطها لنا خالي بكاميرا هاتفه من إحدى جلساتهم في الاستراحة، وقفزه كخروف فوق ظهر صاحبه، وركضهما في تلك الممرات، وخلفهما خالي يلهث ضحكاً وهو يصورهما.

أتقبل عبد الله حين يبتسم وهو يحني رأسه، ليقول لإيمان كلمة حب همساً، وينسى فمه مفتوحاً فهو غير مدرب على الابتسامة إلا ساخراً، وها هو يحاول أن يغادر غرفة الجلوس باتجاه غرفته سريعاً، وبذات الوقت يركل عمداً لعبة ملاك على الأرض، ويدوس ما يصادفه من أوراق وألوان تخصها... مع ذلك أعذره!

أجدني أتعاطف مع لهجة معاذ المستعارة، المغمورة في البلعوم، والتي تتساقط على الأذن جملةً جملةً... لهجة اقتناؤها أصبح دارجاً هذه الأيام، وأداة تباهٍ لا مفر منها.

Twitter: @ketab_n

أنا لا أحمل ضغينة على أحد في يوم جلستي عند الدكتور سعد. أجد طريقا للسلام مع الجميع، ثم أعود إلى البيت كيوم عرفت قلبي، وأنام نوماً طويلاً يغلفه صداع مقتصد وقابل للتعايش.

Twitter: @ketab_n

الأيام تقوم بواجبها على أكمل وجه وتمضي.

لا أعرف إن كان هذا حال أسرتنا وبيتنا فقط، أم أن كل أسر السعودية هكذا، أم هي حال الكون كله؟

كل يوم له رائحة تشمها في أوله، أو عند انتصاف النهار لو تأخر إحساسك قليلاً... رائحة تشي بآخره.

حتى لو لم يكن إلا هواء بسيط يزيح الستارة، حين تستطلعه من زجاج النافذة صباحاً! حتى وإن لم يعكس المنظر إلا عماره صفراء باهته تحول بينك وبين السماء! وكأنك تطل برأسك من نافذة سجنٍ، فلا ينمو شيء أمامك، ولكنك تستطيع أن تقرأ ملامحه وسط هذا القصور في الألوان، لتقول هذا يومٌ سعيد!

وفي بعض الأحيان يأتي صباح ثقيلٌ، و يجثم كنواحٍ طويل هنا بالضبط! أسفل العنق وأعلى الصدر، ومهما ملأت رئتك بالهواء، فستشعر بكتلة الحديد تلك، تلبّد الوقت بين الضلوع.

Twitter: @ketab_n

عبير ورنا منشغلتان بمراقبة عبد الله، وحالة الحب التي تقف له بالمرصاد، وتقوده بعيداً عن مجراه الأزلي: القسوة.

جميل هو الحب، كيف يحولنا من قوالب جامدة تتكرر بشكل يومي رتيب، إلى ثورات نار وخفق فراشات؟! خطيبته إيمان هي ذوق أمي، ولكنه ذوق مستوفٍ لرضا الجميع. فأمي تحبها لأنها يتيمة، فاليتيمة تحمل رزقها معها، وتستظل بالرجل بقوة، وتجده أبا فتطيعه، وزوجا فتعبده.

وأنا وأخواتي نحبها لأنها رقيقة، وقلبها خالٍ من النقاط السوداء، تلك النقاط التي تتكاثر مع الأخطاء، وتزيد حتى تغمر القلب سواداً... هكذا تقول أمي دائماً.

كما أنها علمتنا أن هذا السواد مع الوقت، ينعكس على وجه صاحبه، لا ليصبح غامق البشرة، بل ليغدو كلامه غير مصدق، لأن وجهه يشي بكذبه! ونحن نصدق كل ما تقوله إيمان إلى الآن، كما وأنها تحب الأفلام الهندية تماماً مثلنا.

وعبدالله يعشقها، وكثيراً ما يفيض الكلام عن شفتيه فيقول في غمرة الحب صارخا:

Twitter: @ketab_n

ـ هي لا تعرف شيئا عن الدنيا، براءة.. براءة.. حد الهبل!!

فعلا هذا ما يروق لعبد الله... امرأة حمقاء أو تمثل عليه الحماقة، فعبد الله الجمهور الذي لا يرضى بغير هذه المسرحية.

التحضير لزواج عبد الله، وزياراتنا المتكررة للخياطات والأسواق، وتحضير شقته في الملحق الذي أعده أبي خصيصا ليتزوج فيه، لم يؤثر على مواعيد جلساتي النفسية، فاليوم الذي يتوجب علي فيه الذهاب للعيادة، تتوقف حالة الطوارئ تلك، إلا تلك الأشياء المادية، كدفع عربون المباشرات أو المطربة، أو متابعة إدارة القاعة... الأمور التي يتكفل أبي بها، لتتفرغ أمي لي.

قد تسمع صوت ملاك، وهي تتأفف لعدم خروجها من البيت بصحبتنا أنا وأمي:

ـ دكتور دكتور دكتور!!

ولكنها لا تقول دكتور صحيحة فهي غالبا ما تنطق الراء لاما (دكتول).!

كغصن هجره ورق الشجر الأخضر، قبل أن يكمم عينيه كيس بلاستيك، أحاول أن أعود وأنضم لبقية الأغصان، ولكن عبثا أحاول.

أوكلت لي مهمة حجز المطربة:

صوت إمام الحرم المكي عبد الرحمن السديس، يجهش بالبكاء، وهو يسند الأموات بدعائه الذي تتلقاه عند اتصالك بالمطربة جليلة (أم راكان):

«اللهم اجعل قبرهم روضة من رياض الجنة ، ولا تجعله حفرة من

Twitter: @ketab_n

حفر النار. اللهم افسح لهم في قبورهم، مد بصرهم وافرش قبرهم من فراش الجنـ. . . . .»

لم يكتمل الدعاء. . . انتشلني من سكينة القبور ضجيج (الأورج) و (الدربكة)! يبدو أنها على رأس العمل الآن، أو ربما أرادت أن تشعرني بأهميتها، كي لا أفتش عن غيرها:

ـ هلا (حبي). . . معاك جليلة سأتصل بك لاحقاً!

ودودة جدا هذه الجليلة، ليس فقط لأنها أخرجتني من قبر السديس، بل لأنها أيضا أحبتني وقدمت لي بعض التخفيضات المغرية حين عاودت الاتصال بي فيما بعد:

ـ دربكة وإيقاعات إسلامية لأغاني حديثة بـ خمسة آلاف. . . وإن رغبت في إضافة الأورج، كآلة موسيقية للسهرة، فالسعر يزيد ليصبح ستة آلاف فقط لا غير، ولأن قلبها انفتح لي، فقد أضافت فتاة ترقص بين الطاولات وعلى (الكوشة)، بنفس السعر السابق!!

Twitter: @ketab_n

الصور! هل توقف أحمد عن إرسالها لأبي؟ خط هاتفي المحمول، والذي لازال أبي يتفقده، ويشحن بطاريته في الغرفة وحيداً، مانعا عنه الزيارة حتى من أمي، التي تُفلس حججها أمام الباب المغلق، وخلفه أبي ومحمولي في خلوة تامة!

هذا مايحدث. يفتحه ساعات معينة في اليوم، يتفقده ثم يعيد إغلاقه وإخفاءه.

وأحمد الذي يعرف كل شبر في جسدي، هل نسي لجين، أم أنهما وجدا طريقهما ليتواصلا بعيداً عني؟

ثم أحمد هذا كيف يبدو؟ هل أعرف جسده كما يعرف جسدي؟ أقصد لجين... هل تعرف ذلك؟

هل كنتُ... كانت تحصل على شيء مقابل جرأتها تلك؟

كانت تلك أسئلتي للدكتور سعد. هذه المرة أنا التي تسأل، قبل أن يستأنف تحرياته من جديد:

ـ هل تعجبك جرأتها يا فضة؟

ـ لا أعرف لم تذكرت الآن أن ساقي كانا جميلين جدا... حينما جاءتني الدورة الشهرية أول مرة، لم يكن قد نبت بهما الشعر، كما

Twitter: @ketab_n

حدث لداليا جارتي، ومنال صديقتي. كانا ممتلئين وأبيضين يلمعان نظارة، رغم أنني لم أكن أعتني بهما أبداً.

منذ ذاك حُرّم علي لبس (البرمودا) أو (التنانير) القصيرة!

ـ من حرمها عليك؟

ـ أمي فعلت يا دكتور... أخبرتني أن أخواني في سن المراهقة، وأن علي ألا ألبس ما يثيرهم، أو يلفت انتباههم، كما و أنني أنثى تفور في البيت.

ـ ولم قلتِ تفور يا فضة؟

ـ أنا لست فضة، أنا لجين... أنا أنثى لي جسد جميل جدا، يفور حسناً، لي شعر كان أجمل من شعر أخواتي، ولكن أمي وضعت عليه الحناء ونسيته... نسيته وانشغلت بأخواتي! وضعته في الفجر، وكان يتوجب أن تغسله بعد نصف ساعة، ولكنها غسلته في الثانية ظهراً، حين جاء موعد عودة أبي من عمله.

ـ ثم ماذا؟

ـ احترق يا دكتور...

وهي تغسله، ورأسي يتدلى قرب بالوعة الحمام، ووجهي قريب من الأرض، كان الماء يتدفق بنياً، وكانت كتل الحناء كالصخور تتساقط عن رأسي، حاملة معها خصل شعري الجميل!!

كانت أمي تردد:

(يا ساتر سترك يارب... يا لهفي على شعر بنتي)

وكان شعري يلتف ويدور كثيراً، بفعل دفق الماء فوق بلاط الحمام،

Twitter: @ketab_n

قبل أن يهتدي إلى مثواه الأخير. . . فتحة البالوعة.

ـ ثم ماذا؟

لفت شعري بالمنشفة، وتركتني في الحمام. وذهبت تخرج غداء والدي. . . أخبرتك دكتور أنها غسلت الحناء في موعد وصوله من العمل؟

ـ ثم ماذا؟

هي لم تقل اخرجي من الحمام، وأنا لم أخرج لأنها لم تقل ذلك!! ثم إن شعري كان يتساقط على كتفي، وكنت أخاف أن أتحرك من مكاني كي لا يتساقط على الأرض، وتبتلعه البالوعة من جديد. بعد الغداء انشغلت هي بتنظيف المطبخ، ثم دخلت لتنام، فهي تتعب مثل أبي طوال النهار.

ـ وبقيتِ في الحمام إلى متى يا فضة؟

ـ أنا لجين!!

ـ عفواً. . . إذا يا لجين متى خرجتِ من هناك؟

في العصر، بنفس موعد مسلسل (ليدي). . . سمعت أغنية المقدمة تنبعث من التلفزيون في غرفة الجلوس، فناديت أمي بصوت عالٍ، ناديتها كثيراً!! رنا وصلت أولاً، ثم حين رأتني أبكي ذهبت لتنادي أمي!

ـ ماذا فعلت أمك حين رأتك؟

ـ قالت:

(ياقطع قلب أمك عنك. . . أنت هنا من الظهر)!!

ـ هل يعني هذا إنها نسيتك هناك ثلاث ساعات؟

Twitter: @ketab_n

ـ نسيتني مرتين يا دكتور! مرة أنا والحناء بمفردنا، ومرةً أنا وبقايا شعري. . . هل تعرف (سارة) أخت (ليدي) في فلم الكرتون؟ شعري كان كشعرها، هي بشعر أصفر صحيح، طويل وناعم ويحركه الهواء طوال الوقت. كان شعري أسوداً وطويلاً كجمال شعرها، أرادته أمي أحمرا لذا صبغته بالحناء. ذهبت لأطباء كُثر ليعالجوا فروة رأسي التي احترقت حينها، وبعد مدة بدأت الدمامل تظهر، إثر اختلاف المراهم والشامبوهات، التي كانت أمي تستعجل نتائجها، فتغير من وصفة طبيب إلى وصفة طبيب آخر، قبل أن تعرف لأي دواء نتيجة. تلك الدمامل لها أثر سيء الرائحة على وسادتي ليلاً، لم أكن أُدافع عنها حين يعيرني أخوتي بها، أتركهم ينهشون مخدتي ورأسي ودمامليي، وأضحك معهم لأنال منها أنا أيضاً.

وجه الدكتور سعد قريب مني كفاية ليثير رعبي:

ـ لم أنا هنا؟

كان يجلس على الكرسي قريباً مني:

ـ لم أنت هنا؟ لأنك متعبة يا فضة!

ـ ولكن. . . متى شربتُ عصير الليمون هذا؟

أعرف وجهي حين ابكي، أنفي يحمر بشدة، وقد يظل محمراً حتى نصف ساعة بعد انقضاء الدموع.

وكأنني الآن نبع يفيض ويمضي على عجل، والدكتور سعد ثمرة سقطت قربي. عما قليل سأبتلع هذه الثمرة وستجرح صمتي، كما جرح هو صوتي طوال التسعين دقيقة الماضية، وحين سأصل للبيت، لن يلحظ

Twitter: @ketab_n

بحّتي أحد.

ولكن لم ومم بكيت؟

أنا لا أعرف شيئاً.

لا أعرف... لم أخفيت عن الدكتور سعد نوبات الصداع التي تحرق رأسي من وقت لآخر، ولم أنكرت نسياني المزمن، حين سألني!

ربما أردت أن أنهي الجلسة سريعاً. كانت تشغل بالي بروفة فستاني عند الخياطة، فأنا الوحيدة التي لم يتسنّ لها استلام فستانها بعد، لأنني لازلت أتناقص كل يوم أكثر! يضمحل جسدي، يشهق وجهي، وينغمس صدري في داخلي كحبتي لوز.

كل مرة أقيس الفستان، أضع طياً هنا، أو زماً أنشب فيه دبوساً، ثم أخرج إلي الخياطة خجلة:

ـ أمممم..... ضيقيه من هنا قليلاً، لو سمحت...

لم علي أن أكون شجرةً مشغولة بخيط الزمن، تمر عليها ريح منهِكةٌ، لتشقها أثلاماً، دون أن تمسح عن ورقة واحدة بعض غبارٍ حتى.

Twitter: @ketab_n

ـ ولمَ أكذب؟

ـ لا أعرف فضة، ولكن لا أصدق أنك لم تتذكري راشد اليوم، لا تنسي. . . كان موعد زفافك بنفس ليلة زفاف أخيك عبد الله ، هكذا اتفق أبوك ووالد راشد حينها. لا تحاولي أن تدعي النسيان!

داليا تقول هذا، دون أن تتوقف عن تمرير قلم الكحل الأسود على جفن عينها وحولها وتحتها وفوقها وفي كل اتجاه. هي تحاول أن تقول للجميع الآن أنها (إيمو) رغم أنها أكبر من أي إيمو آخر! تمثل أنها متشائمة وكئيبة، وتجبر نفسها أن تبقى صامتة، ما لم يفر من شفتيها سؤال.

تصاحب فتاة في السادسة عشر، تشق رسغها كل ثلاثة أشهر، ولكنها لا تموت. أعجبت داليا بها في البدء ظناً منها أنها ستصاحب فتاة من عبدة الشيطان، ثم مع الوقت عرفت أن الإيمو لا يصاحبون إلا بعضهم البعض، فأصبحت تقلدها.

في إحدى جلساتي النفسية احتلت على الدكتور سعد، لأفر من نفسي ومن لجين فسألته عن الإيمو، حيث أنني بدأت أشك أن المرض النفسي بات موضة!

Twitter: @ketab_n

ابتسم وهو يكتب على ورقة التنويت الخاصة بحالتي:

Emotive Driven Hardcore Punk

رسم حولها دائرة كبيرة، ثم ابتعد عن كرسيه بزهو من سيلقي محاضرة متمكناً من محاورها وزواياها، ولم ينس أن يرفع جفنه مسنوداً بعنق مائلة.

وبدأ في الكلام، ولم ينتبه لنفسه، إلا حين فتحت الممرضة الباب وهي تقول:

ـ عفواً... الأم قلقة في الخارج!

حين نظرنا معاً لساعة الحائط، كانت قد مضت ساعتان كاملتان على غير العادة.

فهمت فيما بعد من صديقي الوفي (قوقل)، أنها تعني النفسية المتمردة الحساسة، ونسيت معظم ما قاله الدكتور سعد حينها... ربما أتذكره لاحقاً.

Twitter: @ketab_n

الضجيج عالٍ، والمطربة تنشز في كل زاوية من الأغنية، ولكن لا أحد يسمع!

أخواتي وبنات عماتي وأقرباؤنا وجيراننا، الجميع يرقص... من يحبنا، ومن يكن لنا الحقد لأسباب كثيرة تسردها أمي. الجميع يرقص! الجميع يصطف لأداء رقصة الخطوة الجنوبية.

هل الجميع هرع ليشاركنا فرحتنا بعبد الله؟ أم أنه حظ العُرس الذي يجيء موعده في أول العطلة الصيفية، وبعد فترة امتحانات مملة، ودراسة خلال أشهر متواصلة، فيهرب الجميع مستجمين بهذه المناسبة السعيدة دون اكتراث، أو سؤال: من العريس ومن العروس؟!

إحدى قريبات راشد ترمقني بنظرة من بعيد. أتراه أخبر أسرته بأمر الصور العارية؟

أبي رد مرة على سؤال أمي هذا:

ـ راشد أعقل من أن يتصرف هكذا...

كم مرة علي أن أشعر بمدى خسارتي لك يا راشد؟

مضت ليلة زواج عبد الله ليس كما تمنيت، فقد كنت سعيدة

Twitter: @ketab_n

بالتحضيرات لها رغم التزامي بجلستين أسبوعياً في عيادة الكادي. وجهي كان متعباً وازداد تعباً وذبولا (بميك أب السهرة الثقيل).

فستاني كان الأقل جمالاً بين فساتين أخواتي. توقعت أن أرقص كثيراً، أن أشارك العروس صورها، أن نأخذ صورة جماعية أنا وإخوتي وأمي وأبي، ونضحك كثيرا أثناء ترتيب مواقعنا في الصورة! أن أفرح من هنا من بين ضلوع صدري، فأنا مشتاقة لفرح عارم وعميق.

لكن أياً من هذا لم يحدث! حذائي لم يكن مريحاً، رغم أنني اخترته عريض الكعب لترتاح قدماي، وكأخت عريس لدي مطلق الصلاحية أن أنتزعه وأمشي حافية القدمين، لأُعلن تعبي أمام الملأ، فكثيراً ما يفعل أهل العريس هذا في نهاية السهرة، حتى بت أشعر أنهم يفعلونه دونماً تعب حتى! وكأنه برتوكول العريس وأهله في ليلة العرس.

كما وأن (البنس) الكثيرة التي تملأ رأسي تثير غضبي، انتزعها بقوة وأسمع تكسر شعري تحت سطوة يدي، مم كل هذا الغضب؟

بات العريس وعروسه في فندق على البحر في الثلاث الليالي الأولى، كانت هذه هدية عرس عبد الله من معاذ وحازم.

إيمان تصغرني بعامين، جميلة جداً، وهي أكبر أخواتها مثلي تماما، الجميع يحدق بها، بملابسها الجديدة، وحذائها اللامع، وتلك العلامات على عنقها تضحك أخواتي. وأي أنواع التأنيب لا تجدي نفعاً معهن.

معذورات هن، فالجديد يصيبهن بالهذيان.

حين جاءت إلينا في زيارتها الأولى لبيت (حماها)، أدركنا تماماً مدى غيرة عبد الله عليها، فقد كان يحدق إليها كلما وضعت رجلاً على

Twitter: @ketab_n

رجل، وانكشف جزء من ساقها، أو علا صوتها، وحين أراد أن يصعد لشقته أمرها أن تلبس عباءتها، رغم أن أمي كانت تحاول أن تشرح له، ألا أحد في العمارة سوانا، وأن معاذ وحازم خارج المنزل.

أضعنا أول جلسة بعد عرس عبد الله، كان الجميع سعيدا لدرجة تغاضينا جميعاً عن موعدي، أو ربما حرجا من أن تعرف إيمان، العنصر الجديد في الأسرة، بجلساتي النفسية.

لا أصدق أن فرح وملاك تحاصران إيمان، لملامسة شعرها أو حلق أذنها وهي تقص الحكايات عليهن. هما لا تجلسان إلا قليلاً، وبدافع فتح لعبة جديدة، أو فضول ما لا يقاوم لدرجة يرغمهما على الجلوس. حتى وقت الأكل تقضيانه جرياً، لذا هما على جوع دائما. إيمان تحكي لهن حكاية جديدة كلما نزلت من شقتها إلينا، وهي فعلا حكايات تشد حتى عبير ورنا وتشدني أنا أيضاً!! فلم أكن أعرف أن الفيل لا يرى من الألوان إلا الأبيض والأسود، إلا حين قصت عليهما حكاية تميم ومليكة، ولم يخطر ببالي قط إن كان الفيل يستطيع القفز، أو لم يقفز في حياته، إلا منها!

يبدو أن أمي تغار من عنق إيمان الموسوم بأسنان عبد الله... (قبلة الحب) كم يسميها البعض، فما إن تتحول بقعة ما إلى لون بنفسجي فاتح وبارد، حتى تتمدد بقعة أخرى بلون أزرق ساخن وطازج.

هاهي أمي الأخرى تضع اليوم على عنقها نيشان ليلة حافلة قضتها البارحة مع أبي. ربما أرادت أن تثبت لإيمان أنها هي الأخرى لذيذة وتؤكل حتى العنق، وربما هو تصرف يندرج تحت ما يسمى اجتماعيا بتصرفات الـ (حريم)، لا أكثر ولا أقل. تحت هذا المسمى قد تندرج

Twitter: @ketab_n

أسخف التصرفات الغير مبررة!

عامة وبشهادة عبير ورنا: هذه أول مرة نرى علامات على عنق أمي، وبالإجماع حتى لو لم نشرك إخوتي الصبيان في التصويت (أنا أضمن أصواتهم هنا) فقد كان المشهد، وبلا منازع، مقززاً للغاية، وتمنينا على أمي ألا يتكرر، أو أن تخفيه في حال تكرر ببلوزة بعنق عالٍ، أو وشاح يستر شقاوتها. بالطبع كانت أمنية سرية لم نعلمها بها، ونحمد الله أن دعواتنا تحققت.

وجود إيمان أضاف جواً من المرح لم نعتده... طبعاً الجو استمر فترة شهر العسل أو أقل قليلاً، فأصبحت فكرة التردد على البحر والأسواق والمطاعم مستساغة جداً، لفرط إصرار أمي على تقليد إيمان، ولحرص أبي على أن يبدو معتدلا أمام العروس.

ولكني أعتقد أن دهشتنا بالأماكن الجديدة، وتخشب فرح وملاك خلف عباءتنا في الأماكن العامة، ينبئ بأن جرعة الحياة تلك ليست لنا.

تذكرت وأنا أستمع صدفة، لحوار بين عبد الله وإيمان، في (شاليه) استأجرناه للمرة الأولى في تاريخ أسرتنا، منظره حين كان يهز أمي كشجرة تفاح، ويصرخ فرحاً:

إيمان بريئة بريئة حد السذاجة!

هاهو يحاول أن يبدو رومانسياً، فيرسم بإصبعه فوق الرمل أحرف اسمها...

ضحكت وهي تقول: (يا قدمك)!!

ابتسم ثم رسم قلباً وهو يهم بكتابة شيء بداخله. أخفت وجهها بيديها

Twitter: @ketab_n

وهي غارقة في الضحك:

ـ قديم إنت قديم. . . ماتوا اللي يسوون هذي الحركات!!

انبعثت رائحة بحر دبقة من حولنا أثقلت الجو. نظر إليها متعجباً. . !

ـ لمَ إذا لم تقولي إن هذه الرائحة أيضا قديمة؟؟

أذكر أنني يومها أردت أن أبث للبحر سراً، فقد كان أكثر رأفة مما تراءى لنا. أردته أن يستعير من كل أم تحنو بعض حنانها، وأن يراني جيدا، لئلا يخطئ سريري فيصيب حنانه غيري بجهالة، وأن يأخذ من فرح ادخره لمرافئ العائدين من سفر البحر، لكي يمسح به جبيني لأشفى من تعب نفسي من نفسها.

Twitter: @ketab_n

جدة: البحر الممتد فينا، حسْن يحتاج إلى كثير من التنقيح، تلتجئ الحرية إليها سراً، هي النص المترع بالأسرار. فيها ضدان من كل شيء... (بلاك) مهرب وماء زمزم، نورس وغراب أول الصبح فوق عمود إنارة أمام البحر، عباءة تفضح حنايا الجسد وأخرى تفيض عنه، بيوت رثة تسوى بالأرض، وأبراج تتغذى عليها لتناطح الغمام... مع كل ذلك، حين ترفع طرحة عروس البحر الأحمر عن وجهها، لا يسعك إلا أن تقبل جبينها المزين بالمرجان. تسرقني هذه التناقضات في طريق ذهابي الأسبوعي إلى العيادة... يحيرني الدكتور سعد:

تجده دائما في مكانه، وكأن لا بيت له غير هذه العيادة ، ولا سرير له سوى هذا الكرسي! كأنه لا يأكل ولا يبيت...

(Twilight) لا أعرف لم تذكرته منذ مدة، وهو فيلم يحكي قصة حب بين مصاص دماء وفتاة بشرية. رغم محاولة مصاص الدماء إثبات بشريته إلا أن هناك جملة صفات أوقعت به، فهو لا يأكل ولا ينام، ولا يبدو عليه أثر تعب أو تعرق، ولا رائحة له... وقد اقتطعت هنا الصفات التي تطابقت مع صفات الدكتور سعد فقط.

أخبرته في المرة الماضية متعمدةً إضحاكه، عن قصتي مع وقت التطبيق في حصة العلوم، وأنا في الصف الخامس الابتدائي، حيث أطفأت

Twitter: @ketab_n

المعلمة الضوء، وأسدلت الستائر فوق النوافذ:

ـ إذاً... من تقول لنا ماذا يحدث للبؤبؤ (الحدقة) في الظلام؟

ـ يتسع، يتسع... تعالت الأصوات حينها.

ـ ينكمش! قلت لها.

ـ نبتت ابتسامة ساخرة على وجهها! أغلقت الضوء مرة أخرى، فأغمضت عيني بشده لأني أخاف الظلام كثيراً. وشعرت ببؤبؤ عيني ينكمش داخل رأسي.

ـ ماذا حدث لحدقة عينك هذه المرة يا فضة؟

ـ أيضاً... انكمشت يا أبله!!

زمت شفتيها بامتعاض وهي تقول:

ـ يا لعناد الأطفال!

وقبل أن تدير ظهرها قلت لها:

ـ أبله... أنت قلت لنا إن الضوء حين لا يسقط على الأشياء، لا يمكن للعين أن تراها... أليس كذلك؟

مطت شفتيها ساخرةً:

ـ نعم... كان هذا قبل أن تنامي أثناء الحصة!

ضحكات صديقاتي لم تزعجني فقد اعتدت عليها...

ـ وهل ورقة الشجر تبقى خضراء في الظلام أم يتغير لونها؟

كانت سبابتها ضخمة جدا، وهي تقف على مقربة من عيني، فيما تصرخ بحزم:

Twitter: @ketab_n

ـ اطلعي برا الصف حالاً!!

لم تسمع مني. . . سارعت بطردي، قبل أن أخبرها أنني كثيراً ما كنت أقف قرب حائط إحدى حجرات منزلنا، معلقة أصبعي فوق مفتاح الضوء، وحين أتيقن من أني أحدس جيدا مكان إحدى أشجار الزينة التي تملأ منزلنا أفتح الضوء، وأنا محدقة لركن الشجرة تلك، لأتأكد إذا ما كانت ترتدي نفس اللون الأخضر قبل وبعد الضوء!

أعتقد أن الدكتور سعد فقد القدرة على ترتيب أفكاره، أتمنى أن أكون مخطئة، ولكن هذا ما يبدو لي من آلية تكرار أسئلته اليوم!

ـ أجبتك من قبل يا دكتور!

ـ إذا تعرفين الإجابة يا فضة. . . قوليها مرة ثانية فقط!!

كان مبتسما أكثر من أي وقت مضى، وهو يهز رأسه ليحمسني على الكلام.

قلت لك: قبل هذا بكت أمي كثيراً، وأظن المرة الأولى كانت حين رأت علامات بلوغي على السرير، بكت وصرخت في وجهي: لماذا كبرت سريعاً يا فضة؟

انحنت تشد ملاءة السرير لتغسلها، وهي تمسح وجهها يساراً، أعلى كتفها.

ـ هل توقعت أن تفرح ببلوغك؟

ـ أم داليا زغردت حين بلغت ابنتها يا دكتور، حتى أن كل الجيران عرفوا بهذا الاستواء الجميل! ثم أنها عاتبتني لأنني كبرت سريعاً، وماذا كان علي أن أفعل لأتوقف عن النمو؟

Twitter: @ketab_n

ـ هل فكرت أنها كانت تبكي نفسها مثلا يا فضة، أن يكون بلوغك علامة أخرى على تقدمها في السن؟ هل فكرت أن تعذريها، وأن لكل إنسان ردات فعل قد لا تروق لنا أحياناً، ولكنها محصلته من حياته وتجاربه، دون أن يحمل ضغينة على أحد!!

ـ ولكنها حضنت عبير حين بلغت، رغم أنني ساعدت عبير في إخفاء هذا الخبر الذي سيبكي أمي حتماً. ساعدتها على إخفائه يومين، ثم حين علمت حضنتها بشدة، وقرصت خدها وهي تقول: صرت عروسا يا عبير!!

وليتك رأيتها حين بلغت رنا؟! ألبستها سلسلة كانت ترتديها في المناسبات فقط، وقالت لها: أعرف أنك ستحافظين عليها، فأنت كبيرة الآن!

ـ ربما لأنك الكبيرة، وكانت قد تجاوزت الصدمة الأولى، وبدأت تتعود على بلوغ بناتها الواحدة تلو الأخرى يا فضة!!

غالباً ما أبكي حين أتحدث بتفاصيل لم اقلها لنفسي من قبل. تعودت على بكائي أمام الدكتور سعد، وتعودت على مشهد عينيه تراقبان الأرض، وترمشان ببطء، ريثما أنتهي من تنظيف وجهي بعد نوبات البكاء تلك.

هو يجد لأمي الأعذار دائماً، حتى حين أخبرته بأنها، وبينما كانت تستعد لحضور أحد الأعراس (أظنني لم أكن قد ذهبت للمدرسة حينها) تركتْ الكلام يذوب في فمها، ثم قالت بأعصاب راسخة:

ـ لا...!!

Twitter: @ketab_n

ورغم أن ضجة إخواني وأخواتي الصغار انبعثت في كل مكان من حجرتها، إلا أنها لم تلحظ عبير و حازم يتعلقان بستارة غرفتها حينها، وركزت نظراتها عليّ فقط حين حركت قدمي خطوة للأمام باتجاهها. . .

ـ قلت لك. . . لا!!

ودون أن تبعد وجهها من أمام المرآة، وهي تسوي ما تلطخت به يدها من أحمر الشفاه، الذي مررته سريعاً حتى على خدها، وتناولت بودرة ووزعتها على جميع وجهها، التفت إلي غاضبة، حين تقدمت خطوة أخرى إليها:

ـ هل تريدين أن آتي إليك؟!

كانت غاضبة حقاً يا دكتور حينها.

ـ مهلاً. . . عن ماذا كانت تنهاك أمك؟

ـ لا أعرف. . ! كنت أحاول أن أناولها دبوس الشعر فقط. أذكر أنني انزويت بركن الحجرة، و أفلته من يدي فيما بعد، حين تأكدت تماماً أنها لن تحتاجه.

أيضاً فسر الدكتور سعد هذا، ببروده المعتاد، بأنها كانت تنهى الطفل الأكبر في الحجرة حينها، لتردع الأصغر بينهم.

هذه أقدم حيلة للأمهات، وهي ناجعة على كلٍّ!!

Twitter: @ketab_n

توافقت نتيجة تحليل حمل إيمان، التي أوصت بها أمي كثيراً، بعد أن لمست بعض العلامات عليها، مع نوبات صداع وأرق كانت تنتابني بشدة حينها. لم يتسن لي أن أرى وجوه الجميع حين علموا بالخبر، فقد كنت أدفن راسي تحت وسادتي، وأتابع ما يحدث بالخارج سماعاً فقط، أو فيما تتناقله فرح وملاك على ألسنة الدمى حول سريري، حيث ترفع كل واحدة دميتها في وجهي، وتقول بثقة مفرطة:

ـ أنا حامل!

تأتي هذه العبارة على لسان (رافاييل) أحد أبطال سلاحف النينجا، وربما تجيء في المساء على لسان الرجل الأنيق الذي لا دور له، إلا مصاحبة (باربي) في نفس علبتها الجميلة!

تجلس باربي خلف مقود السيارة، لتتجول بحرية في جميع أنحاء البيت، دون أن يعترضها أي من سلاحف النينجا، أو يحكم عليها بعددٍ من الجلدات تأديبا لها!! بينما ينتفخ بطن زوجها الأنيق بكومة مناديل وهو يقول بكل فخر:

ـ أنا حامل!

لا قوانين طبيعة، ولا أنظمة بلاد تحد لعبهن. كل واقعنا مباح ويعاد

Twitter: @ketab_n

تدويره كيفما شاءت فرح وملاك.

ترى: هل لعبة لجين مسلية؟ هل تجدان لها حلاً لم يجده الشيخ علي والدكتور سعد؟

لم تكن إيمان سعيدة، ولم يكن من الصعب على أي منا أن يلحظ هذا، فقد امتدت تلك العلامات التي كانت تطرز عنقها، أيام شهر عسلها على سائر جسدها، وبدا الفرق واضحاً بين علامات حب، وعلامات ضرب عبد الله.

غيرة عبد الله عللتها أمي لإيمان بأنها من (زود الحب)، وضربه كذلك إحدى علامات الحب الملتبسة! وحتى حين أصبح يسند حذاء قديما على باب شقته من الخارج، بعد أن يخرج من الشقة ويغلق بابها بالمفتاح خلفه، فإذا ما فتحت إيمان الباب يسقط الحذاء، وبالطبع لن تستطيع إعادته لوضعه، ولن تستطيع أن تخفي عن عبد الله أنها خرجت من البيت!... حتى تلك الوسيلة الرقابية الرخيصة، بررتها أمي بأنها حب، وحب شديد أيضاً.

ثم حين لم يبق هناك ما يمكن أن يسمى بأسماء الحب التي لا تعرفها إيمان، توقفت أمي عن التعليل، وتوقفت إيمان عن الشكوى.

عبد الله يرفض أن تناقشه إيمان عن مكان سهره، أو بمن اتصل عليه ليلاً، وحتى حين يركض للبلكونة ويغلق الباب خلفه ليستقبل مكالمة، ثم يعود ليجلس قربها بكل وداعة، وقد يرفع حاجبيه عالياً مستهجناً سؤالها عن هوية المتصل. ويتكرر أن يزجرها أمامنا، وفي أحيان أخرى يقترب بنصفه العلوي منها، وقبضته أمام وجهها مباشرة، ولكنه يعيدها

Twitter: @ketab_n

إلى جانبه، حين يزجره أحد والديه عن ذلك الفعل، على الأقل أمامهما.

نحول إيمان وشحوبها برته أمي أنه (وحام) يرافق الأشهر الأولى من الحمل، و كمحاولة أخيرة للتبرير، فسرت ضرب عبد الله المتكرر لها في فترة الحمل أنه غيرة من الطفل الذي في بطنها!

وحين لم يبق هناك مبرر تقوله أمي، حملت إيمان حقائبها إلى بيت أهلها خلسة حين كان عبد الله في دوامه، وعرفنا فيما بعد أن أخاها أحضر من يساعده في خلع أكرة الباب، حيث كانت إيمان محتجزة منذ أسبوع وبدون مفتاح، ولم نعلم نحن في الدور الأول بذلك، إلا من والدتها حين اتصلت تهذر وتسب هذا النسب.

لا أعرف لم قذف باسمي في هذه المعركة بين الحموات، ولكن سمعت أمي تقول:

ـ فضة أشرف من الشرف.

والحقيقة أنني اعتذرت للشرف الأبيض الأنيق منذ الأزل، على تسرع أمي في إطلاق هكذا أحكام.

Twitter: @ketab_n

رغم تغيير أبي لجميع أرقام هواتف المنزل، إلا أنه لازال يقلقنا ويلفت انتباهنا بشدة، حين يرد على أي اتصال:

ـ من معي؟ من المتصل؟ من أنت؟

وحتى بعد أن يقول:

ـ لا... النمرة خطأ.

تبقى الأعين مشدودة، إلى أن تهطل غيمة الثلج تلك من سماء أبي العالية:

ـ لا... كان اتصال محلي، ظهر الرقم على الكاشف.

لم يتح لإيمان وأهلها التفاوض في طريقة تغيير معاملة عبد الله لابنتهم، فقد قطع الأخير المفاوضات قبل أن تبدأ حتى، بطلاق بائن لا رجعة فيه، ومصدقاً من المحكمة الشرعية.

أبكاني الخبر، وأثار تسرع عبد الله جنون أبي، ودعت له أمي بنصيب يعوض عليه خيبته في إيمان.

ووعدته أن تربي طفله أفضل تربية. وبالطبع لم تنس أن تعده بأنها ستزوجه أفضل من إيمان... وأعقل!

Twitter: @ketab_n

خامرتنا الشكوك بأن عدد أفراد هذه الأسرة لن يزيد أبداً فما، إن اقترب راشد منا حتى سحبته لجين لقاع سحيق، وما أن أصبح لدينا زوجة أخ، حتى تلاشت وعادت غريبة كما كانت.

وقبل أن نتذكر أن أمي أجهضت ولدين من قبل، تداركتنا رنا بحكمتها، وذكرتنا أن اللعنة، إن وجدت، فهي تتعلق بثبات عددنا وعدم قدرته على استقبال الزيادات!

حمدنا الله أنها ليست لعنة نقصان تلك التي أصابتنا. ثم... لمَ نسينا أن إيمان حامل؟

Twitter: @ketab_n

ظن الجميع في البدء، أن معاذ حصل على فرصته التي كان يتمناها، حين عمل مصححاً في جريدة تحتضر، ثم وبسبب غروره الأعمى أقنعنا أنه شاعر، بعد أن أقنعنا فترة ليست بسيطة من مراهقته بأنه (مطوع)، وأصغينا لصوته الجميل وهو يرتل القرآن، ويصلي الوتر منتصف الليل باكياً، و (كاشتاً) في رحلات برية ومخيمات أعدت خصيصاً للترويح عن النفس بعيداً عن الملذات.

ثم لم يجد صبراً يقنعه أن الحياة عبادة، فهرب إلى أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام، وكما أصغينا له مرتلاً القرآن أصغينا له متبنيا لآراء غيره عن الحرية والديمقراطية والعدالة، وآمنا به كما آمن به أصدقاؤه (التويتريون) كما سماهم، وبات يغرد ويسمعنا الأسطر القليلة التي يبثها هناك.

ثم مالبث أن صار شاعراً، لفرط ما تدرب على أن يكثف كلامه في تويتر، وصدقنا شعره حين ربط هذا ببعض مواضيع التعبير التي تخصه في الصف السادس. أقنعنا أنه كذلك منذ كان صغيراً، وأن الشعر فطرته السوية التي عادت إليه، لكن أحدا منا لم يتذكر، إلا أمي بالطبع.

كان ما يكتبه يشبه ما يكتبه غيره، كان مألوفا لدرجة قد تسأله إن كان قرأها عليك قبل هذا!!

Twitter: @ketab_n

مرت السماء فوق رأسه سريعاً فهبطت عليه غيمة الشعر، أسس له موقعاً يرتاده الزوار على الإنترنت.

مدونة تصرف نظرك عما سواها، صور تنطق إحساساً، وألوان مخاتلة. ثم بدأ يتحدث عن بعض شعراء سبقوه لتلك المنصة وكأنهم تلاميذه. إيقاع الزمن مخيف... لم تعد بحاجة للكتب إلا كزينة على نصف الرف، وتكمل نصفه الآخر بفواحة أو باقة ورود. لم تعد القراءة ضرورية أبداً، والكُتاب الذين تناسلت أوجاعهم زمناً، قبل أن يعرفهم أحد أصبحت وجوههم مقطوفة كفرسانٍ غابرين.

أصبح الفضاء يقترح لك كاتباً وشاعراً ومسرحياً لم تسمع به من قبل، وحين تسمع به، يكون كمعاذ مشغولا بنقش ثوبه، وماركة حذائه!

لم يعد كل هذا مهماً، فمعاذ لا يقرأ إلا ما يُكتب عن رواية ما أو ديوان، أما بخصوص القصص القصيرة فهو لا يعترف بها أساسا! ودليلي على هذا:

أنني كنت معه وأخواتي في أحد أسواق البلد، ثم ظهرت لنا امرأة أجنبية بشعر أصفر طويل ووجه يملؤه النمش، ثم بعد طول نظرات وإيماءات، في محاولة للتعرف على اهتمامات بعضهما، أشارت بسبابتها نحو صورة طفل معلقة على واجهة المحل، ثم ضمت قبضتها إلى صدرها، وابتسمت وهي تميل برأسها على كتفها الأيسر!!

لوح معاذ حينها برأسه يميناً ويساراً، وهو يضم شفتيه مبتسماً. هو يرفض ما تعلقت به عيناها من صور الأطفال ويعلمها بذلك، ثم أشار إلى واجهة أخرى لنفس المحل التجاري، الذي يقفان في وسطه، حيث الواجهة الأخرى التي تضم بعض الملابس الداخلية النسائية...

Twitter: @ketab_n

ابتسمت هي الأخرى بمكر من تلقى الرسالة الأقرب إلى نفسها!

أخبرني حازم فيما بعد، أن معاذ أخبره أنهما وفي صباح اليوم التالي، استيقظا معا على نفس السرير، وكلاهما يشير إلى صورة وجبة الفطور على صفحة الـ (menu)، في الفندق الذي ينزلان فيه.

وحين سألته فيما بعد عن اسم تلك الشقراء التي تركنا في السوق ولحق بها، أخبرني أنها قصة قصيرة تافهة يعفي ذاكرته من استرجاعها!!

إذا... أنا محقة، فهو لا يحب القصص القصيرة. هو أيضاً كما قلت قبل قليل لا يقرأ إلا الأعمال التي تُلاك على صفحات الجرائد، وتحديداً تلك التي تحصد الجوائز، أو تحوي فضائح جنسية، أو نميمة ما.

ولأكون منصفة أكثر، هو لا يقرأها إلا لينتقدها، وليس نقدا أدبياً أو فنياً... لا. هو يحاول أن يقول أن العمل أقل مما يكتب عنه، وأنه لا يستحق كل هذه الجلبة.

معاذ يخالف السائد ليفاجئ الجميع، فنحن عقلية تتميز بقدرتها على تبجيل المختلف، وليس المتميز.

الوجه النشط الذي نراه في الأمسيات والمعارض والمقاهي والمكتبات والصالونات وقرب المكاتب وفي الممرات وعلى شاشات الهواتف كثيراً... سنتبعه، وسنصدقه حتى لو كان كاذبا.

الحقيقة هو وجه مجتهد، لذا يُعرف أكثر وينتشر بشكل أسرع، وفي خضم صعوده الصاروخي، في ظروف لا تحتمل رفضه، تقبل بتعريفه مثقفا طافياً... ومعاذ تدرب أن يطفو جيداً.

هو يغرق فقط أمام الكمبيوتر، قاذفاً بقدميه فوق ذراع الأريكة، وقريب

Twitter: @ketab_n

منه ورقة وقلم أحمر كمعلم مقدم على تصحيح الدفاتر، وينثر مخالبه فوق الصفحات، يعثر على ثغرة هنا أو هناك، ثم يلوكها في معظم الجرائد والصفحات الالكترونية!

إذاً هو غالبا ما يكون ذاك الطير الأسود في فصل الخريف، وفي موسم الهجرة والذي يلفتك حضوره وسط البياض. ولكنه غالبا ما يكسر الرقم سبعة في أي سرب يحلق فيه!

ولأنه (شاعر) ربما تحمست عبير، وهي تشير بإصبعها إلى صفحة إحدى المجلات، وتقرأ الخبر بصوت عال:

ـ ساحة تسمى (أبيس) في مونمارتر في باريس:

فنان كتب في جدار مساحته أربعون مترا كلمة (أحبك)، بأكثر من ثلاثمئة لغة، طاف باحثاً عنها في جميع بقاع الأرض...

ـ أليس جميلا؟ قالتها وعيناها تلمعان ألقاً!

ـ تفاهة طبعاً! (رد عليها دون أن يلتفت إليها حتى) حبيبته لن تفهم من الثلاثمائة لغة إلا لغة واحدة، ولو الله فتح عليها ربما لغتين، ودعينا نقول الله أكرم عليها بست لغات، ما حاجته لمئتين وأربع وتسعين لغة أخرى!!

معاذ يحاول أن يتعلم العزف أيضا، فمرة يحمل من النت دروساً على البيانو، فيضحك فرح وملاك وهو يؤرجح عشرة أصابع في الهواء، وكأنه يلتقط نغمة طائرة، ومرة يدخل علينا بجيتار الكتروني، يحفز أبواب البيت على أن تغلق جميعاً في وقت واحد! أما الكمان فكان قد استعاره من صديق له، جاء من المدينة المنورة، فرحنا بعودته لأهله أكثر من والدته التي كانت في انتظاره!

Twitter: @ketab_n

يمنح كل آله بعض أغنية، ولا يعزف على أي منها غير ذاك النقر الذي اعتاده. هو ينقر هنا وهنا وهنا، بمنتهى التشتت لأن عقلة يبتاع آلة أخرى.

ومع هذا ينجح ويُعرف، أكثر من رجل عاقر الكتب حرفا بحرف، لأكثر من ثلاثين عاماً.

ـ أي علة نفسية يعانيها هذا الزمن يا دكتور سعد..!

ذلك التقارب بيني وبين حازم، أقصد هنا غير ما نلحقه من عار لهذا البيت، يجعل منا حلفا مشبوها يتجنبه عبد الله، لأنه أخشن من أن يحتك بنا، ويجعل منا أيضا كلمتين نابيتين أقل من أن يلتفت لهما معاذ.

ولكنه التفت فجأة:

ـ ألا يوجد ما تعملان غير التحدث إلى بعض كالعجائز؟

قالها وهو يحمم عنقه بعطر استدان ثمنه من أمي، فالفلوس كجوهر معاذ تتهرب منه.

ـ ما شأنك أنت في هذا؟ أم أنك فرغت من الشاعرات وكتاب الأعمدة والمقاهي ولم يتبقى لديك سوانا؟

كان حازم هكذا مستفز سلفاً في الآونة الأخيرة، لكثرة ما يعايره أبي بإخوتي، وبمعاذ تحديدا والذي رسخ لنفسه سمعةً، ويحسن جيدا التسلق إليها.

ـ ضحكة معاذ مستفزة وتجاهله لحازم بدا مستفزا أكثر من هواتفه التي لا تنفك ترسل له: PING، PING، PING...

Twitter: @ketab_n

بلا أمتعة، أعود في كل مرة من عيادة الدكتور سعد بحقائب فارغة. . . أعود خفيفة وقد تخلصت من عبء ثقيل، كان يتربع على صدري، وتفيض عني راحة ما.

لا أعرف في أي موضوع سنتحدث، ولكن لا أتوقف عن الحديث قبل أن تمضي ستون دقيقة، يخبرني الدكتور سعد أنه يفضل ألا تزيد عن هذا، ولكنه في بعض الأحيان لا يكترث لمسألة الوقت، فنبلغ التسعين، وأحيانا أخرى أكثر.

حين توقفنا لنشتري قهوة (الفائدة الوحيدة التي تعود على أمي من زيارتنا للعيادة) كان هناك مسجد مجاور، وكانت تسبقنا في طابور القهوة هذا سيارتان. لفتني أن خطيب المسجد كان يهنئ كومار، ويلقنه بعض أطراف الحوار بلهجة عربية مكسرة:

ـ كومار إنت فيه إسلام ذحين؟

ـ الهمد لله!!

ـ كان فيه نور أول ولا ذحين نور؟

أكاد أرى يد الشيخ تشير لصدر كومار!

ـ ذحين فيه نور كتير كتير. . .

Twitter: @ketab_n

المسجد يطلق هتافا: لا إله إلا الله، الحمد لله. . . .

ـ تحب تغير اسمك ولا تبغى اسم كافر زي أول؟

ـ غير اسم أنا.

يضحك المسجد برجاله الطيبين حين يقول الشيخ:

ـ طبعا ناوين نسميك اسم رجال مو (نخيشك) في اسم حرمة وأنت ما تعرف الفرق!!

يطلق الشيخ دعابة تتعلق بسذاجة العمالة الوافدة، عن سائق حضر محاضرة لأحد الأئمة، وردت فيها قصة السيدة أسماء بنت أبي بكر، ويضيف ضاحكا:

ـ طبعا السائق لم يفهم من القصة إلا أسماء. . .

ضحكات الحاضرين تتعالى، وكأنها تردد كلمة (آمين).

يحكي الشيخ عن السائق الذي شغف باسم (أسماء)، وأصر أن يناديه صحبه بهذا، وكيف أنه بذل قصارى جهده، ليقنعه بعدم جدوى هذا، حتى توصلا بأن يطلق عليه (أسلم)، وكانت تسوية مقنعة للسائق والشيخ.

قبل أن نتناول الكرتون ذا الفجوات، والذي يضم قهوتي إلى جوار قهوة أمي، مطوية قربها عبوات السكر النحيلة، في مناديل قبيحة، يطلق المسجد التبريكات لكومار الذي صار عبد السلام. قبل أن يؤذن لصلاة العشاء. هواء ساخن تلا هذا الهتاف، ذكرني أنني لم أغلق زجاج السيارة بعد. . .

Twitter: @ketab_n

هل ينزل الليل الآن، ليجلس أمامي؟

ربما حين أحدثه يعرف أنني متحدثة جيدة، وأستحق أن يسهر قربي، لا أن يبقى جاثماً فوق صدري، كاتماً لأنفاسي. لم لا يكون رجلا الآن! يرتدي بدلة أنيقة (SMOKING)، ويحدثني عن لياليه منذ تكونت الأرض في العصر (الهولوسيني) إن كان لازال يتذكر، ولم يصبه ما يصيبني من نسيان وصداع. ثم يحدثني عن رأيه في نظام الأربعة وعشرين ساعة، ورأيه في قصر الوقت وطوله أحيانا؟ وإن كان يمقت البلدان التي لا يظهر فيها جلياً!!

يحدثني مثلاً عن خيانات الأزواج في أحلامهم، وشبق الزوجات إلى جوار رجال لا يشبهون رجالهن.

أجزم لك يا ليل أني مصغية جيدة لكل أنواع الثرثرة، وكاتمة جيدة للأسرار. لن تصدق إن قلت لك إني أخفي أسرارا منذ الخامسة، وأتذكر تفاصيلها جيدا لعلمك! ولن تصدقني إذ قلت لك أنك ستحب السهر قربي، وستعتاده لدرجة أن تكرره كثيراً، وربما حين تألفني أكثر، ستجد نفسك توقظني من نومي العميق لأسهر قربك، لذا جربني لمرة واحدة فقط!!

هل هذه هلوسات الصداع الذي يفتت رأسي الآن؟

يا إلهي... لازلت الساعة الواحدة ليلاً، وعلي أن أنتظر أربع ساعات أُخرى قبل أن يؤذن للفجر.

نعم... أنا أنام حين ينطلق صوت الأذان دائماً. أمي تفسر هذا أن الشيطان يخطفني لنوم لذيذ لا يقاوم، كي لا أصلي فرضي! ولكن مع

Twitter: @ketab_n

كل محاولات النوم الفاشلة التي أجربها مذ الحادية عشرة، أنا مستعدة تماماً للخطف من أي كان، في أي وقت، من الآن وحتى أدخل جنة النوم.

الأحلام هي شخبطة الدماغ على ورق أبيض ناصع، وتكون كابوساً مقيتاً ثقيلاً، حين يشخبط الدماغ على ورق استخدمه من قبل! يجيء رسمٌ فوق رسمٍ فوق رسمٍ...

ويبدو أن دماغي لا يملك إلا ورقة واحدة منذ الأزل.

Twitter: @ketab_n

إعلان شامبو على إحدى الفضائيات تقول فيه الممثلة التركية الشهيرة، وبلسان سوري مبين:

(مشاكل اليوم ما بدها حل امبارح!)

أمي منحنية على قميص حازم، تعيد تثبيت أزراره، رغم أن أيا منها لم يسقط بعد! ولكن أمي المفعمة بالتشاؤم، ترى أنه يجب أن نعيد تثبيت كل أزرار لأي قميص رسمي، لا نعرف متى قد يسقط، وأمام أي موقف أو صدفة مع مسؤول ما، و بالطبع لا يمكن أن تؤجل، أو تتكرر الصدف الجميلة!

حازم وجد له عمل محاسب مبيعات (cashier)، في أحد محلات الملابس السهرة النسائية، في مول يبعد عن بيتنا نصف ساعة، إذا انطلق ولم يصادف في الطريق أي ازدحام، أو إشارة مرورية متلبكة، أما لو صادفه غير ذلك فالطريق يطول والراتب ينقص، فأهم خبرة عليك أن تكتسبها في هذه المحلات هي الدقة في المواعيد، وقدرتك على التكهن بمقاس الجسد الذي تخفيه العباءة.

تعلم حازم أن يفتح المحل في العاشرة، يجرد خزينته، يلتزم بقرار منع الشاي أو القهوة طوال فترة العمل.

Twitter: @ketab_n

تعلم أيضاً متى يغلق المحل قبل صلاة الظهر، ومتى يعود لفتحه؟ تعلم كيف يخرج الزبونات بلباقة وقت الصلاة، وكيف يعلق قلوبهن ببضاعة تختبئ في المخازن، لأنهن أحق بها من غيرهن، فيلزمهن شغفهن أن يبقين واقفات أمام المحل، حتى يعاود فتح المحل بعد الصلاة، لينلن البضاعة المحجوبة لهن.

يختفي في غرفة قياس الملابس ليدخن سيجارة، ثم يعاود فتح المحل بعد الصلاة حتى الواحدة والنصف. يعود إلى البيت، ونظراً لوقت الظهيرة، الذي يتقاطع مع وقت خروج الطلاب من مدارسهم، والموظفين من أعمالهم، وصراخ المعدة جوعا (المصائب تأتي مجتمعة كالعادة) فإنه يصل إلى البيت ليسرق لقمتين، وينام كقتيل حتى الرابعة، ثم ينهض مسرعاً إلى دوامة الطريق الأخف زحاماً. يعود ليفتح المحل في الخامسة إلا عشر دقائق، ثم يغلقه قبل أذان المغرب. يهرب لنفس الحجرة التي علمته كيف يكون مدخناً، رغم أنه لم يكن يدخن من قبل، ولكنها عادة تعتادها، ريثما تفتح المحلات بعد الصلاة.

الوقت بين المغرب والعشاء يمضي، قبل أن ينطفئ مذاق سيجارة صلاة المغرب، ثم يغلق المحل للمرة الثالثة لأداء الفريضة أيضا. . . (بالطبع مخصوم من هذه الفرائض الفجر والعصر) يعاقر حازم السيجارة الثالثة أيضاً، فهو لا يدخن إلا في تلك الحجرة، ثم يعود لفتح المحل حتى الحادية عشرة، وينطلق بعدها مسرعاً إلى البيت. . . لا وقت للأصدقاء والأفلام والنت ومتابعة أخبار (نادي جدة بويز) مع كل هذا التعب. . .

ثم نتجرأ ونسألك إن كنت سعيداً في عملك يا حازم؟؟

Twitter: @ketab_n

ليس سعيداً، وليس لهذا علاقة بافتقاده لتلك اللمسات الفنية، التي كان يحب أن يتركها على السيارات التي شغف بحبها، ولكن لأنه يتوجب عليه دائما، أن يجد مكانا يختبئ فيه عن لسان أبي القاسي، منذ تخرج بتلك النسبة. . . عليه أن يختزل أمنياته الآن لطريق يقتاده كل يوم ليمارس عملاً لا يحبه.

تقول له رنا دائماً: لا فرق بين العمل ببيع الملابس النسائية أو إعادة تزيين السيارات. . . كلها خياطة!

رغم محاولته اختلاق قصص مضحكة عن ذلك المكان، ليُشعر أمي أنه سعيد و متوائم. . . نكات ومقالب وحوارات جميلة بين الباعة وبينه، وبين فريق العمل الذي حضي بنسبة أسوأ من نسبته حتى، كما يقول، إلا أن وجهه وتنهيداته، أثناء ذهابه لإحدى الفترتين الصباحية أو المسائية، ينبئ بما يخفيه تحت تلك النكات والمقالب، على الأقل بالنسبة لي أنا الأقرب سناً له، وصديقته كما يحب أن يقول عني دائماً.

المرة الوحيدة التي شعرت به يدس ذكرى بعيداً عن ثرثرتنا المعتادة، كانت حين حدثني أن امرأة دخلت المحل قبل إغلاقه لصلاة المغرب بقليل. شرب اللحظة قبل أن يكمل القصة، لعق ما بقي منها فوق شفاهه، وابتسم وهو يغمض عينيه ببطء ويعاود فتحهما بالتدريج، فقد عثر على صورتها الآن ولا نية له في أن يضيعها.

نسي حازم أنني موجودة وهو يقول:

خجلت أن أستعجلها في الاختيار، فقوامها جريمة متكاملة لا يمكن الخطأ فيه، فقد شوشت حتى على موعد الأذان فتأخر ثلاث دقائق حينها.

Twitter: @ketab_n

ثم أنها لاطفته بكلامها وعينيها المشبعة بالكحل، ورائحة عطرها التي ملأت المكان. تحمس وهو يخبرني أنها شجعته كسعودي على العمل في أي مكان يغنيه عن الجلوس في البيت كبعض النساء «مثلي أنا، فأنا من النساء الجالسات في البيت. . .»

ضحك وهو يخبرني:

ـ قالت هذا لي، وهي تضحك يا فضة.

يجاملها حتى الآن ويضحك معها. كانت ودودة معه حتى ظن أنها تركت له رقمها في غرفة القياس بعد أن غادرت المحل، فأعقبها إلى هناك.

كان شارداً في رائحتها في غرفة القياس، ورغم أنها كانت تغطي معظم وجهها، إلا أنها نسيت بعضا من ملامحها معلقاً على المرآة داخل الغرفة، تركت له بعض عطرها، وخرزا زاد عن بريق فستانها. كان ذوقها بسيطا، قوامها نحيل فالخرز المتناثر قليل، ولم تبدده الزوائد التي توتر القماش، ليتساقط الخرز كعادته حين تصر المرأة على أخذ فستان يقل عن قياسها درجتين، لذا لم يتناثر هنا إلا ما تعلق بذراعها، أو لعله شعرها من علق بهذا الخرز الأزرق. لم تقس سواه، فقد انسكب على جسدها وكأنه فصل لها.

أعرف هذا جيداً. . . أغمض عينيه، وتخيل كيف وقفت تعلق عباءتها خلف الباب، وكيف انكشف خصرها أمام المرآة، ثم وهي تنزع قميصها المبتل بعرق فتنتها.

جربت فستانها العبق برائحته الجديدة. لبسته بحذر، ليأتي دور يديه

Twitter: @ketab_n

وهي تخترق الباب ليقفل لها سحاب فستانها، يشتم رائحتها وهو يغلق أزرار أعلى الرقبة، يرى يديها ترفع شعرها قليلاً ليزرر لها فستانها، يلتصق بظهرها وبجسدها الناهض، ويطبق يديه على خصرها. يسقط في زاوية حجرة القياس، ينتفض قليلاً قبل أن يعود لماكينة الحساب بوجه متعرق، وابتسامة افتقدها منذ وطأت قدماه هذه المحل.

لم يقل حازم كل هذا، ولكني رأيته قبل قليل. . .

Twitter: @ketab_n

ـ لست أفهم! (قلت لعبير)

ـ أين الشريحة؟ ما الذي لا تفهمينه في سؤالي؟! تلك الشريحة كانت سرنا، والآن ليست في مكانها!!

ـ ظننتكما تخلصتما منها، أنا لم أكن أعلم أساساً أنها لازالت في غرفتنا!

ـ كفى تمثيل يا فضة! أين الشريحة، وإلا سأخبر أبي بكل شيء وجدناه في غرفتنا منذ البدء!

تكذيب عبير قاسٍ، فأنا وإن فعلت ذلك، فلست أنا من فعلت. . !

ـ لا علم لي بذلك عبير؟

ـ ستفعلين كل ما يحلو لك، وسترمين بتبعات مجونك، على تلك الحيلة التي راق لك تحليلها من الدكتور سعد. . . أليس كذلك؟

(بدا صوت عبير ساخراً غاضباً، ويدها كما تجيد الرسم، تجيد أيضاً التلويح في الهواء).

أنا لا أخبر أحدا بما يدور في عيادة الدكتور سعد، وساعدني في ذلك أن الدكتور قال لأبي أن السرية والثقة المتبادلة بين المريض وطبيبه، إحدى أهم وسائل العلاج، فلم يعد أبي يلح عن أي شيء كنا نتحدث أنا والدكتور سعد.

Twitter: @ketab_n

ولكني كنت أخبر عبير ورنا بكل شيء يدور هناك، بتحليلات الدكتور سعد التي كان يشركني في كل تفاصيلها، وبظنه أنني أختبئ خلف لجين لأفعل ما أريد، وأن هذا ليس بالضرورة بوعي كامل، وحين قلت له فصام وأنا مندهشة، ضحك وقال إن الفصام الذي تتحدث عنه الأفلام، لا يسمى فصاماً، وأن ما كنا نراه في الأفلام هو متلازمة الشخصية الانفصالية «دي آي دي»وهو ما يشك أنني مصابة به في أبسط حالاته، حيث لازلت أجيد إخفاءها عن العالم الواقعي، وأستخدمها في عالمي الافتراضي (النت)!

ـ ذلك المرض هو قشرة لشيء ما يدور هنا. . . (قالها وهو ينقر بسبابته على رأسه!!)

كما أخبرني مرة أن المرض النفسي كالزلازل، طبيعية وخارجة عن السيطرة، وليس على المدن أن تخجل من زلازلها، بقدر ما تخجل من تباطؤها في إعادة ترميم نفسها وإصلاح عطبها. أذكر أنني أخبرت أخواتي أيضا بهذا، هل نسيتْ عبير؟

ومع ذلك أنا خجلة من كلامها الآن، وخجلة من نفسي أكثر، ولا أعرف بماذا أرد عليها!

Twitter: @ketab_n

بدأت رسائل الاعتذرات في هواتف أسرتي قبل بدء رمضان بأسبوع واحد، وأهلي لديهم عادة غريبة، يحبونها ويصرون على تداولها.

يقرؤون رسائلهم جهراً! رسائل التهنئة والنكات والرومانسيات العامة، والمتداولة بالطبع.

رسائل رمضان هي رسائل تطلب الصفح والمغفرة قبل بدء الشهر، نريد أن نبدأ صفحة جديدة بدون أي ضغائن، لنفرغ تماماً لجوع أربعة عشر ساعة قادمة! وعشر ساعات أخرى نقضيها في الأكل والصلاة ومشاهدة المسلسلات!!

لم يعتذر مني أحد فأنا بلا هاتف خاص بي، لذا لم أسامح أحداً.

تلاشت المراقبة الجبرية التي أتعرض لها منذ ستة عشر شهراً، فالشياطين تربط، والجوع يهذب النفس. انشغل الجميع إما بالهروب من الجوع بالنوم كعبد الله، أو الطبخ كحال أمي و رنا وأنا، أو بختم القرآن كل ثلاثة أيام كحال أبي، أو بمتابعة المسلسلات كحال حازم وعبير والصغيرات، أو بعدم الصيام نهائياً كحال معاذ.

عبير وفية لبعض أبطال المسلسلات، تعرف تواريخ ميلادهم، وأبراجهم الغربية والصينية، أول أعمالهم، مواهبهم، والكثير من لقاءاتهم التلفزيونية... تحفظها عن ظهر قلب.

Twitter: @ketab_n

كانت تتابع لقاء ذات مرة لممثلها المفضل، رأيتها شاردة، ثم في لحظة التقطته من شاشة التلفزيون، تزوجته للحظات، أعدّت وجبته المفضلة، أنجبت له طفلين يشبهانه، صنعت خطواتها من هدوء متقن كي لا توقظ منامه، أهدت لي وأنا إلى جوارها فستاناً كان يغار كثيراً حين تلبسه، لشدة فتنته فوق قوامها، حتى لو كان ذلك من أجله!

ولأنه فنان يشكو دوما عدم تفهم المرأة لطبيعة عمله أمام المذيعة، مما يؤدي دائما إلى انفصاله عن زوجاته، تفهمت هي طبيعة عمله في ثوانٍ، وتركت له بعض المعجبات على هاتفه الخلوي، وحين انتهى البرنامج التلفزيوني سمحت له أن يغيب عن عينيها، دون أن تعرف أين هو الآن!! أليست هذه هي الزوجة المثالية؟

الجميع كان يلتقي على سفرة الفطور، والجميع يصرف وقتاً على تحليل حلقات مسلسل رمضان الأقدم (طاش ما طاش) وربطها بمواقف فلان وفلان، وكيف أن هذا هو ما يحدث فعلا في مجتمعنا، وأن هذا وذاك هو حال السعوديين عامةً. ولكن الجميع أيضا ينتهز فترة الإعلانات ليفتح نقاشاً من نوع آخر تماماً، ليصر على إطلاق رصاصة الرحمة على هذا المسلسل العجوز، وكيف أنه بات يكرر نفسه!!

عجباً لهذا التناقض، هل أنا وحدي من أتوه في نفسي الكثيرة؟

المهم أنه و بفضل تلك الإعلانات الطويلة والمملة، تعود الرؤوس من نشوة الانخطاف لشاشة التلفزيون، عوداً كاملاً ومظفرا لسفرة أمي العامرة، وبأعينها هذه المرة، وليس بأيديها وأفواهها المروضة على العمل بمفردها.

Twitter: @ketab_n

أنا متفرغة لنفسي تماماً، أجدني في صباحات رمضان الهادئة جداً مستيقظة ووحيدة، بدون أعين عبير ورنا اللتين تتناوبان على حراستي بالتزام يقدر لهما.

أصبحت كل يوم أخرج بإحساس أشد رسوخاً، فعلي أن أناقش الدكتور سعد في تلك الأفكار المجعدة، والتي لازلت أحتفظ بها عن سبب كره أمي للخادمات!

استند الدكتور سعد للحائط رافعاً ذراعية كوسادة خلف رأسه، لم أستطع منع نفسي من مقارنة كمية العرق المتسرب على قميصه (البيج)الكتان، بامتداد إبطيه نزولا حتى صدره، كان الجانب الأيمن أكثر وأوسع وأطول وأبعد انتشاراً من الأيسر!! لماذا وهما متوازيان تماماً يعرق أحدهما أكثر من الآخر!؟ لماذا والتكييف عال والغرفة باردة. ما الذي يستفز أحدهم حتى يعرق هكذا؟

ـ حسنا فضة... لا أظن أن علاقة خالك بخادمتكم، حين كان يكمل دراسته في جامعة جدة قد مستك شخصياً، إن كان هذا ما تحاولين إيصاله لي!

ـ أنا من وشت بهما دكتور.

ـ وشيتِ لأنك كنت طفلة ربما، والأطفال يخبرون أهليهم غالباً بكل ما يثير انتباههم. أليس كذلك؟ أم أنك كنت تغارين يا فضة؟

ـ كان يقف خلف باب الثلاجة المفتوح، ويخفي معظم جسمه، وكانت هي تقف قرب حوض الغسيل، كانت هي الأخرى تخفي معظم جسمها، وكانت يده هناك، يمررها بلطف في جزء صغير من جسدها،

Twitter: @ketab_n

ويكرر الحركة ببطء شديد، وكانت هي مستمتعة، مرتبكة بذلك في البدء.

ـ كيف عرفت أن يده هناك، وباب الثلاجة يخفي معظم جسده؟

ـ أقسم بالله أنها كانت هناك.

ـ دعيني أخمن... أتعرفين ذلك يا فضة لأنك كنت يوماً خلف باب الثلاجة نفسها؟

الوقت محير عند الدكتور سعد، يأخذني من عمرٍ إلى عمر، ولا أملك إلا أن أشهق أمام الصور القافزة من رأسي على مكتبه.

لعبة الحقن الشرجية التي كان يلعبها خالي معي، هي من عرفتني على الصبر! في البدء كانت غير واضحة آنذاك، ثم بدأ يفسر لي أنها تأتي بعد العشاء، لتفتش عن الأكل الذي لم أهضمه لأكبر سريعاً، ثم كنت أخالف إحساسي حين أقول له إنها لا تؤلم، مع أن ذلك الجزء الصغير من جسدي كان يحترق.

ثم طوال ما يتبقى من الوقت، صرت أختبئ في سريري متنازلة عن وجبة العشاء، ظناً مني أن هذه الإبرة لا تأكل من جسدي حين أجوع.

وفي مرة غنيت أغنية ولم تأت الإبرة يومها، بقيت أغنيها في اليوم الثاني، ولم أتوقف عن غنائها حتى وأنا آكل، فقد كنت أدندن بها في نفسي، و أُأَرجح جسدي على إيقاعها لترى الإبرة الأغنية التي تجفل منها، ولكنها أتت ذلك المساء فنسيت الغناء يا دكتور.

وحين حاول أن يعطيها لعبير لأنني لا أستكين، قلت له سآخذها وسأستكين لها، ووعدته ألا أهرب ثانية.

Twitter: @ketab_n

لم أستطع أن أتخيل رسومات عبير تحدق في الحقن، وهي قرب وسادتها، حيث تبيت هناك إلى جانب ألوانها ودفاترها. . .

ـ ثم عبير ليست ذكية مثلي يا دكتور! قد لا تعرف كيف تنكمش في السرير، وتغرس أصابعها في المخدة، وتضغط وجهها عميقاً داخلها ليخف الألم.

لم أنكث بوعدي لخالي حينها، وكنت راضية كل الرضا عن وداعتي، حتى حين أخبرت أمي عن الخادمة. كنت رأيتها تبكي في حجرتها، وتضرب بطنها بيديها، ظننت حينها أنها لم تعرف كيف تتجنب ألم الحقن، وأردت لها أن تعود لأهلها، لتنجو منه.

ـ لجين. . لجين. . لجين. .

ـ نعم!

ـ لم أجبت بنعم! هل أنتِ لجين؟

ـ ألست كذلك أحياناً دكتور؟

ـ أنت تدركين الأخرى إذا. . . تعينها، حين ينتابك إحساس كإحساسك اللذيذ خلف باب الثلاجة تلك؟

ـ لم تقول أنه إحساس لذيذ؟

ـ فضة أو لجين. . . أنا أنتظر إجابة، لا أن توجهي سؤالا لي!!

(كعادته حين أقلب السؤال عليه يعبث بشامته أسفل فكه)

ـ لا. . . أنا فضة فقط.

ـ لم أجبت بنعم إذاً، حين ناديتك بلجين؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا أعرف، قلت لك لأننا نتحدث عنها وعني هنا، فأجبتك بهذا! لمَ لا تصدقني؟

ـ فضة أسمعك دون حاجة للصراخ، ثم أنا لا أُكذبك، أحاول أن أفهم فقط مدى وعيك بنفسك حين تفعلين ما يشبع نهمك للذة الإعجاب بك، وبكونك ممتعة وجميلة ولا تشبهين غيرك.

ـ يشبع ماذا... لم أفهم كلامك دكتور؟

ـ فضة... أنت تعطين حازم دميتك المفضلة، يجرى لها جراحات أو أياً يكن ما سميته، بمقابل أن ينفذ سيناريو أنت تمليه إياه.

تعطينه مجلة، يحل كلماتها المتقاطعة في ملعب الكرة، وقبل أن تبدأ المباراة، يأتي أحد أصدقائه، وأظنك قلت مرة إنه طارق الثرثار!! اختيار موفق طبعاً لإذاعة السر. يريه حازم فتاة الغلاف، صديقه ينبهر لرؤيتها، ثم يأتي دور حازم هنا:

ـ هل هي جميلة؟ تصدقني إذا قلت لك أختي أجمل منها. شعرها أسود وطويل ووو..... من هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك يا فضة؟ ليس عربياً أو غربياً، لا أحد يمتدح أخته أمام رجل غريب! ليست المسألة هي الحرام أو الحلال، هو فقط عمل غير لائق! هل صدقت يوما إن حازم فعل السيناريو الدقيق الذي أعددته له؟ أم أن أعين دماك سقطت، وتمزقت بطونها دون أن يبلغ خبر حسنك للجميع!!

ـ أحببت أن تصدقي هذا، وصدقته يا فضة، صدقته لأنه إحساس لذيذ لا يسعك مقاومته، أن يكون أحد في الجوار في هذه الساعة يتحدث عنك، إحساس لذيذ كلذة الحقن خلف باب الثلاجة، أو التعري أمام

Twitter: @ketab_n

رجل فقير في بلد أفقر. هو كادح لن يهددك بصورك يوما، لأن وقته وماله لا يتسعان لذلك، ولأنك أقنعته أنك ابنة ضابط كبير في الجيش!! تهديد مبطن يا فضة، الشاب بالطبع لن يفتح فاه، لأنك متعته الوحيدة في يومه الفقير.

يستمني فوق نهديك الناهضين، ويشعرك بلذة حسنك، ولأنك لست أنت تماماً، فأنت بحاجبين أكثر سمكاً، وبعدسات لاصقة، وبشعر مستعار، وبياض فارسي جميل. تخفين فضة لتظهر لجين. فلا تقلقين أبداً حيال انتشار الصور وتنوعها.

لا يؤنبك ضميرك، لأن التي لعب معها خالك وأحمد، هي لجين الجميلة وليست أنت!

ـ فضة أريد أن أسمع تعليقاً لك على ما أقول!

الدكتور سعد يعيرني الآن بتلك الأسرار التي تسللت مني في الأشهر الفائتة!!

علي أن أسقط، أن يغشى علي، أن يسيل خيط دم الآن من أنفي، أن أقع على الأرض ويفيض فمي رغوة بيضاء تصل لأذني كسرب من النمل، وتتدفق حتى حذاء الدكتور سعد، على أن أرتجف وأرتعش وأنتفض لأهرب من هذا الحوار، إلى مكان لا أسمع فيه صوته وتحليله عن الوعي واللاوعي وعن ظلمه لي.

طرف السجادة البنفسجية الباهتة يمتد، ليربط بين عيني وقدمي أمي، طرف السجادة نجح في أن يكون جسراً بيني وبينها... أنا على الأرض، وهي في السماء.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت لا تخاف ربك، لماذا هي ملقاة على الأرض هكذا؟

يدا الدكتور سعد والممرضة تبعدان أمي، التي دفعها صراخي إلى الهجوم على جلستنا المغلقة.

ـ هي تمثل يا أم عبد الله، تحاول أن تهرب، أرجوك اتركيني أنهي جلستي، لا أرغب في قول المزيد!

الدكتور يعيد أمي للخلف، بدون أن يلمسها، هو فقط يتقدم نحوها بلطف، وهي تتراجع دون أن تنخفض نبرة صوتها. يحاول أن يحملها مسؤولية عدم التقدم في العلاج.

ـ ابنتي على الأرض مغشي عليها، وأنت يا دكتور تقف وتتفرج!

تحاول أن تتسرب من بين أيديهم. أن تنزلق بعيدا عن الأيدي المتشابكة والصرخات... أنا لا أغمض عيني ولا أفتحهما، هما بين البين، أراقب و أكتشف للتو، كم أجيد هذا حقاً!

حضن أمي دافئ ونبضها عالٍ جداً.

تسب الدكتور ومهنة الطب، التي تقتل الرحمة في قلوب الأطباء. هي على الأرض وأنا في حضنها، يدها التي كانت تقرص يدي ظهراً لأني أضيع حشوة لحم السمبوسة في عجينة لا أحسن قصها، هي من تضمني إلى صدرها بقوة، تغريها الأمومة فتشدني أكثر. ليس هيّناً عناق أمي هكذا، فهي كما قلت من قبل لا تشبه الأمهات، نبضها كزفير الخيل حين يتعبها الركض... هديره عالٍ ونادر... ما أَصدقه!!

ما أجمل دويه قرب أذني، أشعر أنني في زجاجة بلورية تحيط بي تماماً، لتحجب عني وحدي تلوث الكون كله!

Twitter: @ketab_n

يبدو أن الدكتور سعد فقد بوصلته الآن، ويدور حول نفسه، وممرضته تبرر هجوم أمي، بأن الصراخ كان عالياً، ولم تستطع أن تقف لوحدها أمام وثبة أمي. تفتح يديها شرقاً وغرباً على اتساعهما، و كأنها تحمل شاشة بلازما ٣٢ بوصة ممتدة بين يديها، وهي تبرر له عجزها عن صد جسد أمي بمفردها!

بالطبع عذرتها أنا بدوري، واحترمت بعد ذلك قرار الدكتور سعد في أن ينهي هذه الفوضى، ويُضيفنا أنا وأمي ببعض عصير الجزر من ثلاجته.

Twitter: @ketab_n

ـ قولوا لها. . . لو تزوجت الولد سينتقل إلي، وحليبها ترضع به زوجها الجديد، لا حاجة لنا به.

قال عبد الله هذا، وهو ليس غاضباً كما يبدو من طريقته في الكلام. هي نبرة صوت يستعيرها عند الضرورة، لغضب محفوظ في دماغه، مصحوباً بحركة فك مرتعش وعينين جاحظتين.

كل هذا التصميم يحضر كاملا، حين يريد أن يبدو غاضباً في موقف لم يستفزه فعلاً! هو أساساً يقف أمام المرآة. يخنق رأس (مرزاب) غترته بإصبعين، ويعده شامخا فوق رأسه، ليهيئ نفسه للخروج من البيت.

جاهدت عبير وهي تغطي سماعة الهاتف، كي لا يصل صوت عبد الله لإيمان على الخط الآخر.

أعتقد أن إيمان أطلقت دعابة ساخرة عن عبد الله، لأن عبير ضحكت ضحكة طويلة، ثم قالت:

ـ آهاا. . . آسفة يا سيدتي، نسيت أنك كنت زوجته.

حين أنهت عبير مكالمتها قالت:

ـ إيمان ستتزوج.

ضحكت أمي ساخرة ثم قالت:

Twitter: @ketab_n

ـ بالطبع ستفعل. . . المطلقة هي مدينة من الجوع، لذلك هي قادرة على أكل أي شيء، وبأي طريقة مشروعة أو غير مشروعة، عليها أن تسد فوهة الجوع يا بناتي صدقنني. . . (رأس أمي كان يتحرك بسرعة، وهو يتأرجح موافقاً على كلامها لنا ولنفسها)

ـ ولكن حين تطلقت رشا ابنة خالتي، قلت يا أمي: إن المطلقة كزهرة ياسمين، تكسرها حتى قطرات المطر!

شرست ملامح أمي فجأة وهي ترد:

ـ الآن يا ظالمة، رشا يمكن أن نشبهها بإيمان؟

ـ حسنا إيمان ليست كرشا، ولكنك أيضاً قلت عن زوجة خالي العقيم، إنها شجرة عرعر مهما بللها المطر لا تنجب ورداً. ثم سمعتك تواسين أمل ابنة أختك همساً، حين علمتِ بعقمها وقلتِ

إنها ستبقى وزوجها في شهر عسل دائم، وإن هذه نعمه تحسد عليها!!

اكتفت أمي بقضم لسانها داخل فمها. يبدو أنها أرادت أن تبصق علي، ثم تراجعت عن ذلك في آخر لحظة.

رغم أن إيمان كانت السبب في انتشار خبر ترددي على طبيب نفسي، حيث صرحت، أثناء غضبها من تسرع عبد الله بطلاقها وهي حامل، بأن العائلة كلها مريضةٌ نفسياً!

رغم أنها تحدثت عني، وعن اسم العيادة وموقعها، كمثال حي لا يقبل الدحض، ولو أنها حين هدأت اعتذرت وسحبت بعض كلامها الذي يخصني تحديداً، ولكن من الصعب إعادة لملمة الرماد المتطاير، بعد أن عبث به الهواء.

Twitter: @ketab_n

مع كل ذلك بقيت إيمان صديقة مقربة لعبير، تتحدثان وتتسامران معاً، و لربما أكثر من ذي قبل!

لمَ حين نبتعد عمن كان وجودهم حتمياً ولا مفر منه في حياتنا، نصبح في بعدهم محبين لهم أكثر؟

ولمَ أفتقد جلسات الثرثرة مع الدكتور سعد!!

«حياة الإنسان ليست طويلة بما يكفي ليجرب كل شيء، وليست قصيرة بما يكفي ليتذكر كل شيء، ولكنها جميلة بما يكفي، إذا عرف أنها لا تساوي شيئاً».

ـ جميلة هذه الرسالة.

ـ أحاول أن أنام.. رنا!

ـ هيا... ردي علي، هل تذكرك بشيء؟

ـ أحاول أن أنام!! هل أقولها بلغة أخرى؟

ـ فضة... الحياة قصيرة. عليك أن تتوقفي عن زيارة العيادة! طالبي أهلي بخط جديد قبل العيد، وأعيدي اتصالك بصديقاتك، وعيدي الجميع، وفسري غيابك بدراسة أو أي كذبة أخرى.

اذهبي لداليا... أليست أقرب صديقاتك إليك؟ هي تعيش حالة (إيمو) الآن...

تقول رنا هذا، وهي تستعجل عبور الضحكة، لتنتهي منها سريعاً وتعود للجد:

ـ ربما لأنها تفتقدك تعيش هذا الحزن! (رنا الآن تتقمص دور الدكتور سعد)

Twitter: @ketab_n

اسهري معها كما كنت تفعلين سابقاً. عودي إلى ممارسة حياتك مثلنا، و ارفعي رأسك المطأطئة هذه. ألا تكفي سنة ونصف من العقاب، على جرم لم تعلمي حتى أنك تفعلينه؟

ـ كل هذا مكتوب في الرسالة؟

ضحكت رنا، ولم أرد بأكثر من هذا.

أكملت تصفية هاتفها كما تسمي هي عملية انتخاب بعض الرسائل وحذف أغلبها، وحتى بعد ساعتين من حوارنا أنا وهي، لم أستطع النوم، وليست تلك المطالب التي وشت بها رنا ما تؤرقني، إنه صداع يلتهب في مقدمة رأسي، يملأ عيني زرنيخاً وأذني رصاصاً!! الموت يرقد الليلة في سريري.

Twitter: @ketab_n

« كل حبسٍ يهون عند الليالي
غير حبس الأرواح في الأجسادِ. . . »
الشريف الرضي

Twitter: @ketab_n

زهاء التاسعة صباحاً، كنت في سريري وبملابس داخلية جميلة، أعتقد أنها تعود لإيمان، حيث أنها لم تأخذ بعض أشيائها من شقتها، ورغم أن أمي جمعت لها أغراضها، وأرسلتها في ثلاث حقائب كبيرة مع حازم، إلا أننا شممنا عطر بعض أغراض أخرى طوال أسبوع من التنظيف والتخلص من الأثاث القديم.

تقول أمي:

ـ إن المرأة القذرة تمرغ وجهها البعثرة، مهما حاولت أن تظهر العكس، ودليلها في حالة إيمان، أنها لا تضع أشياءها المتشابهة في مكان واحد!

فقد كانت تقفز أمامنا قطعة يتيمة من ملابس داخلية مترفة، ونحن نزيح أريكة، أو نرفع وسادة في غرفة الضيوف، ووجدنا أخرى خلف مقبض الستارة! وكانت أمي تصب عليها لعناتها، في كل مرة تجد علامات صخب الأجساد، في غرفٍ غير غرفة النوم المعتادة.

وتقول:

ـ من يبدل ملابسه في غرف الضيوف بالله عليكم؟!! أي نوع من النساء كانت زوجتك يا عبد الله المسكين؟

Twitter: @ketab_n

أعتقد أنني لم أكن لأفاجأ لو أجابت فرح ذات الستة أعوام أن هذا لم يكن مسرح تبديل ملابس، أكثر من لو أن أمي عرفت الإجابة لوحدها!!

حسناً... كيف قفزت هذه الملابس لجسدي في الساعة التاسعة صباحاً، في الثلث الثاني من رمضان؟ لا أعرف...

ـ فضة... يجب أن تقولي شيئاً، هذا ليس طبيعياً!

ـ لمَ لمْ تحاولي إيقافي طالما هو ليس طبيعياً! ولم تحاصرنني في سريري هكذا!!

ـ حاولنا فضة! (تقول عبير) و كنت تصرخين في وجهي كلما اقتربت لأخذ هاتفي من يدك! خفنا أن يعلو صراخك ويسمعك أبي أو أحد أخوانك، الله وحده يعلم ماذا سيفعل أحدهم حينها؟ فضة... كنت تقبلين الهاتف، وتصدرين أصواتاً مخجلة، كنت ترينه جسمك صعوداً ونزولاً... حاولنا أنا ورنا أن نقترب أكثر، وخشينا أن نظهر أمامه على الشاشة... قذفنا بالمخدات عليك، جئت من أمامك بنفسي لأنتزع الهاتف من يدك، ولكنك كنت تديرين ظهرك بمكر لتحرجينا ونظهر في الصورة أمامه مكشوفات الشعر و ببجاماتنا!! وكأنه تنقص أبي وأخواني فضيحة أخرى!!

حاولت أن أنتزع الهاتف منك بعد أن تدثرت بشرشف الصلاة، بينما رنا تغلق الباب، ولكنك دفعت بي بعيدا وأنهيت المكالمة بقبل ساخنة حين سمعت صرير الباب وقلت:

ـ (تيته صحيت) ثم قذفت بالهاتف على سريري!!

مصابة بالخجل في كل خلية من جسدي، هذه الملابس ضيقة ويفيض

Twitter: @ketab_n

عنها جسدي، لا أعرفها، وكأنها ثياب جميلة منشورة على حبل غيري!

هذا الجسد ليس جسدي حتى، ضئيلة أنا حين أكون منأى لسر بهذا الحجم.

يختلط الآن شكي بيقيني. جسدي يجول بلا وصي، أنا حقاً لم أعد أفهم شيئا...

هذه هي قضيتي: جسد عارٍ ومشاعٌ و كثير التداول...

Twitter: @ketab_n

لا أتذكر أول مرة فعلت هذا، ولكن وعدت نفسي أن تكون هذه هي الأخيرة. خلال ساعتين، كنت قد رتبت موعداً في عيادات الكادي.

كنت أكملت أسبوعين ونصف، من آخر زيارة للدكتور سعد. تغاضيت عن أربع جلسات، ولم أكن لأستطيع أن أفعل هذا لولا مساعدة أمي، والتي كان لديها نفور من تلك العيادة، ومن بلادة إحساس الدكتور وممرضته.

ربما لأنني جئت في موعدٍ أعد على عجل، صادفت لأول مرة مريضاً خارجاً من مصيرنا المشترك (عيادة الكادي):

ـ أستميحك عذراً أخي المطعون في نفسه!

شدت أمي يدي المرفوعة قبل أن يلحظها الرجل، وأعادتها إلى جانبي خاوية...

ـ مجنونة أنت يا بنت!!

بدا الرجل كصورة باهتة في كتاب. لولا صوت مفاتيحه في جيبه الجانبي، لما عرفت أن قدميه تمضيان به للأمام.

كنت أركز في تلك اللحظة، التي ستنشق فيها الأرض بعد قليل قبراً، وتبتلعه ظناً منها أنه مات! كنا: أنا، ولجين، وهو.. موكب موت يعبر ببطء.

Twitter: @ketab_n

حين دخلت على الدكتور سعد، قلت له:

ـ أنا لا أعرف متى أكون لجين ولم؟ أنا أصاب بصداع لا تجدي معه أي مسكنات، ولدي ذاكرة سيئة ومليئة بالثقوب السوداء... ذاكرة تبتلع كل شيء، ليس كأغلب الناس بل أكثر بكثير، وشهيتي للأكل سيئة جداً، ولكني أجبر نفسي على الأكل. أستيقظ بعض الأيام بمزاج لا يسمح لي بمغادرة السرير، مزاج طائش قادر على أن يقودني للمطبخ، ولأكبر سكين نخبئها لعيد الأضحى تحديداً، لكن لا أفعل هذا، أشعر به وحسب.

يصاحب هذا المزاج أرق لا ينقذني منه إلا الحظ. وعندي غضبٌ لا يفارقني، أحيانا أجد له مبرراً وأحيانا أخرى أحتار فيه.

أمممم.... هذا كل ما أعرفه!

أخبرتك بكل شيء أتذكره في الجلسات الماضية، أرجوك يا دكتور... لم أعد أرغب بأن أستيقظ عارية بين أخواتي، ولا أعرف أمام من سأستيقظ في المرات القادمة.

أنا بحاجة ماسة للعلاج من هذا، ترعبني فكرة أن أتجول في البيت عارية، والجميع يحدق ووحدي لا أرى عُريي.

أنا متورطة في نفسي، فتدخل بكل ما تعرف... أرجوك!!

ـ سأتدخل وعليك أن تثقي في جدوى وجودي قربك يا فضة، وسنتجاوز هذا معاً، وسنشرك أهلك في بعض التفاصيل، ولكن عليك ألا تتوقعي أن الحل سيأتي سريعا.

لن نيأس، ولكن سنحتاج لكثير من الوقت. مررت بمستويات عالية من

Twitter: @ketab_n

التوتر في طفولتك، ربما بحتِ ببعض التفاصيل، لكني متأكد أنك لا زلت تخفين الكثير.

يمكن أن يتجلى تنفيسك لهذا التوتر في شخصية بديلة ترتاحين إليها داخلك... شخصية تنجو بك مما لم تتجاوزيه صغيرة، ولكني حتى اللحظة، ولا أخفيك، لا أستطيع أن أجزم أن ما تعانين منه هو الـ (DID)...

إن كان كذلك، فعلينا أن نخلق تعايشا وبمساعدة الأدوية ولفترات طويلة... ولن أقول لك كم قد يستغرق هذا، فشخصيتك البديلة قوية، ولا تأبه لأحد، وتمتلك آليات دفاع مربكة. أنت لست ملزمة بها في اللاوعي، لذا سننحيها بالتدريج، وبالعودة دائما لفضة الطفلة الصغيرة... سنفتت لجين القوية، سنعلم فضة كيف تنتفض على خوفها وخجلها، وعلى الشخصية التي تسكنها، والتي ليست شخصا حتى... أفهمتني؟

استغرق فهم بعض تحليل الدكتور سعد ليال طويلة من السهر والأرق. لازلت منذ تلك اللحظة، التي خرجت فيها إلى الحياة وحتى الآن، أستهلك السنوات فقط ولا شيء غيرها، أما نصيبي من الفهم فلازال محدوداً!!

Twitter: @ketab_n

ـ الأقرباء الذين عرفوا بخبر زيارات فضة للطبيب النفسي بادئ الأمر تكتموا، و اعتبروه وشاية من مطلقة حاقدة على طليقها وأهله.

ـ ربما أمك يا داليا علمت هي أيضاً عن طريقك أنت، أو عن طريق الجيران، ولكن لم تظهر هذا لأمي بعد... مشكورةً على ذلك!!

ـ خذي هذا الطبق، وكلي مكسرات أفضل، أشعر من ملامحك هذه أنك على وشك أن تطحني آدمي تحت أسنانك يا رنا.

(رنا وداليا في غرفتنا، ولم تلحظا عودتي من العيادة مبكرة اليوم، و لا وقوفي قرب الباب متصنتةً كعادتي الأثيرة)

ـ لا لن أطحن شيئاً!! اطمئني، يكفي ما تجنيه فضة في حقنا... عليك أن تتوقفي عن لعبة (الإيمو) هذه يا داليا! يبدو الأمر في البدء بسيطاً، وأنك تملكين زمام الأمور، ولكنك عما قليل ستتشظين مثل فضة..! يصل خبر مرض فضة للذين دفعتهم سمعة جمالها لخطبتها، فيتراجعون عن إتمام الخطبة بشكل رسمي. بل و صارت أمي تحتفظ بأطقم الهدايا التي رافقت النظرة الشرعية، لعلمها أن الخبر سيصل عاجلاً أم آجلاً وسينتهي أمر هذه الخطبة، وعليها أن تكون جاهزة وحاضرة لإعادة الهدايا في أي وقت. هذا هو حال فضة منذ بدأت تلك الصور..

Twitter: @ketab_n

كم مضى من الوقت ياترى؟! كأننا ولدنا بهذه القصة، أنا لا أذكر كيف كنا قبلها حتى!!

ـ لا يهمني من كل هذا يا رنا إلا فضة. . . ماذا عنها؟ ولم تستبعدني هكذا؟ لم تعد صديقتي التي تربيت معها، تتشاغل بهذه المدرسة الأهلية التي تعمل بها، تخلق عذراً في كل مرة أحاول أن أكون معها كما كنا نفعل سابقاً، أريد أن أتقاسم معها وجعها. لم هي متروكة هكذا! ولم تتحدثين بهذه النبرة ومتحفزة ضدها، هل تحتاجين أن أذكرك أنها تضررت أكثر من الكل!!

(واتتني رغبة أن أدفع الباب وأعانق داليا الساعة، كانت أحن من أختي التي تنهش غيابي الآن)

ـ فضة نكبتنا كلنا. . .

من سينظر لعبير؟ ستتخرج في هذا العام من الجامعة. من سينظر لي يوماً، وربما لأخواتي فيما بعد، من سيتزوج بنا بعد كل هذا الذي يقال عن فضة؟؟

البعض يظن أن جنونها وراثي، ولا أخفيك أظنها في كثيرٍ من الأحيان تمثل وحسب، تمثل لتفعل ما تشاء وقتما تشاء. لن يحملها أبي إلى قارب في عرض البحر، ليرميها هناك إن انحرفت، كما كان يهددنا حين كنا صغاراً. لن تُوبخ إن لم تصل الصلاة في موعدها، فالشخصية الثانية لم يربها أبي. لن يُقذف برأسها بعيداً عن جسدها إن أدخلت رجلاً غريبا إلى غرفتنا، أو إلى سريرها حتى؟! أي نوع من الأمراض الجميلة الذي يمنحك عذراً لكل هذا، ولم تُشفى أو تتنازل عنه أساساً؟

ـ اخفضي صوتك. . . أختك ملاك نائمة، ثم لا أجد سبباً لهذا الضحك رنا! ماذا بك؟ هل تمثلين انهياراً!

Twitter: @ketab_n

ـ صدقيني. . . الأمر مضحك يا داليا! الطبيب صغير وأحمق، يدور في الحجرة حين تصرخ. . . أقسم لك أن أمي أخبرتنا بذلك! ويفشل في إعطائها دواء مناسبا كما يبدو لي، فهي لا تستخدم إلا دواء واحدا عند شعورها بالصداع، ويغيره لها بين وقت وآخر، ودواء آخر تقذف بمعظم حباته أمام أعيننا في السلة، مدعية أن من يفعل ذلك هي لجين وليست هي.

ـ تعنين أن هذا كله لن ينتهي قريباً؟

ـ (دلول). . دعيك الآن من فضة. اذهبي لبيتكم، خذي موعداً في أي صالون، غيري قصة شعرك هذه، البسي ألوانا تناسب سنك. النفس كالزجاج يشوها تعدد البصمات عليها. أرجوك افعلي ما أقول لك، لا أريد أن أخسرك أنت الأخرى.

ـ يااهـ يا رنا. . . هذا يعني أنك خسرتني قبلها!!

ينتفض رأس رنا، وكأنها سمعتني خلف الباب. . .

أستغرب قسوتها علي:

ـ لا عليك داليا. . . أعلم أنك تظنين أنني أفتري عليها، ولا ألومك هي صديقتك ولكنها أختي أيضاً، و أظن الجميع أساء تقدير ذكاء فضة كثيراً، لكنني وعبير سبقنا الجميع لمعرفتها. يوما ما، أنت وأهلي والطبيب ستلحقون بنا، بعد أن تتخلصوا من ورطة تصديقها. . . اذهبي يا صديقتي، لو رجعت فضة وأمي الآن من العيادة، وعلمت أنك أخرتني عن دراستي، فستعلن عليك الحرب.

ـ أمك أم فضة من ستعلن الحرب؟

ـ فضة حرب متواصلة لن تحتاج إلى إعلان. . . عنيت أمي يا عزيزتي.

Twitter: @ketab_n

فيما بعد، وحين أصبح أمر خطبتي ومن ثم انفصالي عن خطيبي أمراً اعتيادياً، إذ سرعان ما يكتشف العريس أنني جسد لا يصلح للسكن، أصبح الأمر مجرد لعبة للتسلية. بتنا نتراهن أنا وأخواتي على مدة استمرار أي خطبة، فتتجاوز بعضها ثلاثة أشهر وأخرى ثلاثة أسابيع، وأطولها صمدت حتى الشهر الخامس، ولكن وفي خطبتي هذه المرة كان الأمر مختلفا، و لم تفز أي منا بالرهان.

كنا حينها منصاعين لعادتنا الدائمة: العشاء العائلي، حتى لو كانت نهاية العالم تطرق الباب الآن، فنحن لا نبالي بأي شيء، ونحن نلتف مع بدء نشرة الأخبار، ومنذ الأزل، في تمام التاسعة حول سفرة العشاء.

يحمل كلً منا وجها لا يقلق أمي، ولا يُقنط أبي... وجها تعلوهُ طبقات من الجلد، تختفي تحتها طبقات وطبقاتٌ من الأسرار.

نحن عائلة لا تبوح كثيراً، عائلة مثالية، تجلس بمزاج طيب بانتظار لحظة كلحظة انفجاري تلك، لحظة لا يسع الجميع فيها إلا أن يتعايشوا معها، آملين فقط ألا يعلم أحد من الأقرباء والجيران والمعارف، بما يحدث تحت هذا السقف.

جاء اتصال لأبي، اتصال مسنود بكثيرٍ من الهمهمة. أنهى مكالمته مع قضمة واحدة للقمة كان قد بدأ فيها قبل أن يرد على هاتفه:

Twitter: @ketab_n

ـ ناصر بن محمد يرى أن نستعجل زواج الأبناء، لأن الموافقة على بعثة محمد قد جاءت، ولا حاجة للتأخير أو تعطيل الزواج في إجراءات روتينية، طالما أنهما لن يؤثثا شقتهما إلا بعد رجوعهما نهائيا من أمريكا بعد أربع سنوات.

نسيت أن عبير سكبت لي الشاي للتو. ارتشفت رشفة كبيرة شعرت بها تشتعل في فمي، سقف حلقي اكتسب ملمساً خشناً للتو، فمي يحترق، ولساني يركض في فمي كإطفائي تحترق بدلته، حاملاً خرطوماً فارغاً من الماء.

Twitter: @ketab_n

ـ لا أجد سبباً لمخاوفك يا فضة. . . تزوجي أين المشكلة؟

ـ ماذا لو عادت لجين.

ـ أنت تستطيعين أن تمنعي ذلك تقريباً. وعيك بها، توازنك في حل مشكلاتك، نقاشك لما يضايقك مع من تثقين به ممن حولك، مهما بدا الأمر غير مجدٍ، تأكدي أن هذا سيخفف من الضغط. ثم علينا أن نتحدث. . . نصوغ هذا الداخل المتناقض ليخرج بأي لغة كانت. نحن بشر يا فضة وسيلتنا للتواصل هي الكلام.

ثم أعرف صديقاً له أصدقاء كثر في أمريكا، سأحصل لك على عنوان أحدهم، وأتمنى أن يكون في ولاية كولورادو، ستكونين في دنفر. . . أليس كذلك؟

لم ينتظر جواباً وأكمل:

ـ عليك أن تتواصلي معه وفق جلسات، سيحددها لك بما يتناسب وظروفكما، سأحاول أن أحدد كل هذا من هنا. . . لا تقلقي.

صمت قليلاً وكأنه لاحظ صمتي للتو فقط:

ـ هل يريحك هذا؟

ـ ومحمد؟

Twitter: @ketab_n

ـ رأيي الشخصي كرجل، وبعيداً عن مهنة الطب، ألا تخبريه الآن بشيء، مع وعد لنفسك باختيار الوقت المناسب لهذا. أنتما لم تمرا بفترة خطوبة حتى، ربما لو عرف الآن فلن يتفهم هذا جيداً، لأنه ببساطة لم يعرفك بعد. دعي الأيام تأخذ مجراها الطبيعي بينكما.

ثم أنت في بعدك عن هذا الجو المتناقض، الذي يشتت تفكيرك، ستصلين بمعرفتك بنفسك وبه، إلى وقت مناسب يتيح لك شرح ما مررت به بثقة عالية... ليس كل ما مررت به بالتأكيد، ما كل ما يعرف يقال في مثل هذه الأحوال.

غمزة الدكتور سعد مستعارة من أحد مشاهد فيلم العراب على ما أظن، مع فارق ضوئي في الأداء. كانت مفتعلة وثقيلة لدرجة ظننت أنه لن يفتح عينه ثانية، أما ابتسامته فكانت له تماماً.

عندما هممت بالمغادرة، قال لي الدكتور سعد: مهلاً... حين دخلت إلى هنا، قلت أنك تريدين أن تقصي علي حلماً يراودك منذ أيام!!

ـ الجلسة انتهت دكتور؟

ـ حسناً لا تجلسي... قوليه وأنت واقفة!

لا أعرف... لمَ لمْ أجد دعابته مضحكة، رغم أنه يضحك كثيراً من نفسه، ويعتذر أيضاً عن خروجه عن طوره، وكأن الدعابة تستحق هذا التجاوز!!

ـ رأيت امرأة شعرها طويلٌ جداً، تحاول أن تقف على كتفي رجل، لتتسلق حائطا... في الحقيقة لم أرَ وجهه ولا وجهها أيضاً. غرست هي كعب حذائها الأحمر في منتصف ظهره تماماً. معذورة فعيناها

Twitter: @ketab_n

مصوبتان نحو الأعلى، ولم تلتفت للأسفل، فيما يُسحق هو تحت حذائها، وكان ينتفض من الألم.

رفعت عنقها أكثر، ومدت ذراعيها فأصبحت أطول مما هي عليه، بينما انحنى هو بشكل أكبر! ازداد ثقلها، وغاص الكعب في اللحم أكثر وأكثر..

ثم حين تألم!!

نظرت بتململٍ للأسفل، نسلت الحذاء من قدمها اليمنى فكان الكعب مغروساً بعمقٍ، نسلت اليسرى فوقع الكعب على الأرض، وتسلقت حينها الحائط حافية كعنكبوت بأربعة أطراف! وبقي هو بظهر معقوف دامٍ، ووشم على هيئة كعب بين كتفيه!!

ـ دكتور... بماذا يفسر الأب فرويد المرأة ذات الحذاء الأحمر على الكتف العاري!

كنت أسخر حينها، ولكن الدكتور رد بجدية:

ـ دعينا نذهب أبعد من الحلم يا فضة، دعينا نتوقف اليوم عن التفسير، طالما أن شيئاً آخر يشغل بالنا، ومبروك مقدماً.

ابتسامة الدكتور سعد الباهتة، تشعرني بأنه قرأ للتو نتائج فحوصات الحلم، وأتت وكأنها تشير لموتٍ قريب!

Twitter: @ketab_n

في الشرفة المزينة بقماش التل السكري، وباقات الورد القرنفلية، وشرائط الستان، لم أستطع أن أمنع عيني من التقاط السواد الذي يملأ القاعة.

أعينٌ تحدق من خلف اللثمات، أما من هن في الصفوف الأولى فيحدقن في شاشة على (الكوشة)، تنقل لهن صورة مباشرة من الأعلى، لذا لا أرى أعينهن، فقط ظهورا سوداء تتهامس في وسط هذا الضجيج! أنا الآن صورة في شاشة تشبه شاشة السينما، في بلدٍ يحرم السينما أساساً!!

ـ أنا صورة مرة أخرى.

كنت قد سمعت المطربة، وهي تردد على الحضور:

ـ العريس سيدخل صالة النساء، فهذا وقت الزفة.

تقول هذا، لتدفع من ترغب من النساء الحاضرات للبس العباءات، قبل أن يدخل العريس إلى القاعة.

كنت قد سمعت هذه العبارة في مئات الأعراس، ولكن لم أتخيل ولو لمرة، كيف يبدو المنظر للعروسين من الشرفة!!

ـ رعب يا محمد... المنظر من هنا رعب!!

Twitter: @ketab_n

ثم التصقت بذراعه أكثر. . .

قلت له هذا وأنا أستعير وجها ضاحكا، ولكنه كان أسعد من أن يرى غيري. أعرف أنه يحبني، وأعرف أن قلبه يشع صفاء، وأن سيئة وحيدة قام بها في حياته لم تغتفر بعد، لذا يعاقب عليها بزواجه مني! وأعرف أن حسنة وحيدة قمت بها دون التفاتة مني، ساقته لي زوجاً جزاء إحساني هذا!

ليته يعرف كم أعول على محبته هذه كثيراً، في قادم الأيام!

في الممر الذي اخترت زينته بنفسي. . . ورد طبيعي وشرائط ستان سكرية اللون، مع أنوار تضيء كلما خطوت بقدمي أنا ومحمد خطوة للأمام. فرح وملاك بفستانين أبيضين، وأكفٍّ مطوقة بالشرائط، تنثران في الهواء ورداً قرنفليا وريشاً أبيضاً، يتناثر أمامنا مباشرة أنا ومحمد.

على إيقاع أغاني (ريمكس)، بضجيجها العالي الذي يملأ المكان، بدأ السواد يتلاشى من حولي. . . لم أعد أرى سوى ضحكة محمد الحنونة، و بقعة الضوء التي تجمعني معه هنا.

بساطة تعارف محمد على حازم في (الفيس بوك)، حين كان يفتش بين الأصدقاء عن معلم مناسب للجيتار، لعله يهدي معاذ إليه ويريح أُذنه من نشاز عزفه، حينها دله محمد على أستاذ متمرس يعطي دروسا بسعر معقول إلى حد ما، ورغم أن محمد لا يفرق بين صوت الجيتار الإكتروني عما سواه، ولكن محبته للمساعدة دفعته لسؤال رفقته في الشقة، و من ثم علق على حائط حازم اسم ذلك المدرس، ثم مع تطور عزف معاذ، وشكر حازم المستمر لمحمد، تطور بينهما مايشبه التشابه في

Twitter: @ketab_n

الأرواح، فكلاهما بقلب كبير وطيب. والداه اللذان حضرا في مهمة عاجلة وهي خطبتي، ثم عادا لقريتهما فزعاً من شوارع جدة و ازدحامها. خجل محمد حتى بطلب مهاتفتي في فترة الخطوبة القصيرة جداً، والتصاق محمد بإخوتي فهو بالصدفة لا يكاد يعرف غيرهم منذ غادر قريته.

ثم هذا النوع من الحياة الذي يقوم على جملة من المصادفات:

صادف أنه رحل من قريته وأقام قريبا من الجامعة...

صادف أنه كان متفوقا، فلم يرَ ما هو خارج الكتب وأسوار الجامعة...

صادف أنه نجح وتفوق، فكنت، أنا الفاشلة، مكافأته على نجاحه...

كل هذا جعل من يده دفئا يرن في شتاء يدي. حتى فستاني لم أعد أشعر بثقل حركته وأنا أسير إلى جواره. هو لا يعرف أن النهاية أرض بالنسبة لي والرحيل سماء، وأنه منذ الآن سمائي التي أغتسل بها من وجع نفسي الكثيرة.

نتزوج لأن الناس جميعاً يتزوجون! أمي تبكي فرحاً، أبي يبدو أنه سيبكى أيضاً إذا رآني بثوب العرس، الذي تأجل على يد ستة عرسان. حين نودي ليتصور معنا، وقف يحدق بي كثيراً، رغم أن المصورة تدخلت لتعدل وقفته بنفسها، ولتفك حزام يديه عن بطنه. أبي مذهول! يبدو أنه لم ير هذا اليوم حتى في أحلامه.

هم جميعا سعداء في هذا اليوم، أشعر بالأمان قرب محمد، وأشياء أخرى تتوالد عن هذا الإحساس:

Twitter: @ketab_n

راحة، دفء، سلام، مودة... ولكن ليست سعادة أو حب! السعادة والحب أبعد من أن تصل إليهما يداي...

الحقيقة أنهم زوجوني مرتين على هذه الأرض!!

مرة حين ربطوني إلى جانب شجرة، وأنا ابنة البحر، فلم نتفق أنا وراشد، بالطبع قبل أن أصيب أهلي بالفضيحة بصوري تلك وأطلّق. وهذه المرة أسندوني لغمام معبأ بالطيور، وأنا ابنة الأرض القاحلة. لا أعرف إن كنت سأفلح في هذا، أم أنني سأظل أزوج لأشياء لا تشبهني، لأطلق منها!

لا أستطيع أن أمثل السعادة، تلك التي نصِفها عادة بأن قلبك يؤلمك لشدة الضحك، أو أن تتكرمش عيناك غائرةً في رأسك لمجرد إبتسامة، أو لا تستطيع أن تسجن بياض أسنانك خلف شفتيك، لفرط ما تغافلك الفرحة وتفر من وجهك.

لا شيء يغمرني هنا!

هنا تحديداً، تحت يدي اليسرى أعلى صدري، يوجد قلبٌ يزاول عمله اليومي بشكل عادي.

يرتدي نبضه التقليدي، ويضخ دورته الدموية المملة، بشكل روتيني من القلب وإلى القلب، لا ضغط متذبذب، ولا ارتباك في مستويات الأدرينالين. لا يبدو أن جسدي يكترث بهذا العرس، لا نبض متسارع، ولا ذاكرة ترصد كل تفصيلة صغيرة، ولولا أنني أمشي في هذا الممر باتجاه (الكوشة)، لنبت على جسدي الصقيع...

ألم أكن دافئة قبل قليل!

Twitter: @ketab_n

نحن نشعر بالسعادة لأنها ملكنا وحدنا، حق لا يستطيع أحد أن يفرضه علينا، ولا نتعلمها بالتلقين، ولا نستطيع أن نجامل بها أحداً، ولا نتقاسمها إلا إذا امتلأت بها دواخلنا، وفاضت عنا.

أنا لا أستطيع أن أتقاسم مع أهلي شيئا لا أملكه، مهما كانت سعادتهم في هذه اللحظة، لذا لا أملك لأمي جواباً كلما أشارت بسبابتيها موازيةً لشفتيها، كي لا يلحظها محمد ووالدته التي وقفت على مقربة مني، وكأنها ترسم خطوطا خفية على شكل فمٍ ضاحك، محدقةً بوجهي علّي أفهم إشارتها المجهدة بعلامة الابتسام، دون أن تضطر للكلام. . .

Twitter: @ketab_n

لا تقلقي يا أمي. . . هذا القلب الملآن انكسارا، أنبأني أن أهيئ أرضا جديدةً لاستقبال تلك الحياة، ففي كل يوم تلا يوم عرسي، صرت أتعامل في حياتي بمقولة: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا).

لكن الدنيا، لا الآخرة، هي ما أريد من زواجي. . . علي أن أتمسك بهذه الدنيا بيتاً أقيم فيه. أن أقتل إحدى شخصياتي التي صنعتها لي بلادي بيد غير مرئية، وأن أصنع شيئا جديداً لمحمد، ذاكرة لا تُقاومني. عليّ أن أجعل منه إنساناً عاجزاً تماماً عن الحياة بدوني، حتى إذا ما عثر على لجين يوماً عارية أمام الكمبيوتر، أو تلوح للمارة من نافذة منزله في دنفر، بجسد لا يستحي من الأعين العابثة فيه، يجد سبباً لمسامحة تلك الوجوه، ووقتاً للإصغاء لبكائي بين كفي الشيخ علي، و صبراً ليقرأ معي ملفي السمين في عيادة الكادي، قبل أن يقذف بورقة ثلاثية الكلمات، كتلك التي يتسلى بقذفها كثيرا أخي عبد الله.

في كل مرة أتربع لمشاهدة أهلي وجها لوجه عن طريق الـ (Skype)، أشعر بهم يفتشون بأعينهم في أقاصي جسدي، عن شخصية أخرى لا تظهر معي في الصورة.

Twitter: @ketab_n

في كل رسالة أبعث بها لأهلي من إيميلي، حين لا يتسنى لي ضبط وقتي على ساعاتهم، يأتيني الرد من إيميل رنا، و أشعر أن شيئا لم يتغير هناك.

أمي تجلس على سريري، وتشير بسبابتها في الهواء، مغمضة عينيها بشدة، كما تكون وهي تملي علينا نواقص البيت عادة، وتغضب كثيراً حين لا نتذكر معها ما يدور في رأسها!

وهي الآن في نفس المكان تملي على أخواتي ما يقلنه لي، ويجهدن في محاولة إعادة صياغة كلامها كي يُقرأ، وهي تسرع بالكلام، لأن أعمال المنزل كالعادة لا تنتظر بالنسبة لها.

وأفهم جيداً ماذا يوجد خلف كل سؤال، فمثلا في هذه الرسالة:

ـ أمي تقول لك يا فضة: ابتعدي عن الكمبيوتر، واهتمي ببيتك وزوجك... لن ينفعك غيرهما.

(حسنا... أمي تلمح جيداً، وأنا أفهم تلميحاتها، فلجين لازالت تغذي مخاوفهم كما تفعل بي).

وفي هذه الجملة أيضاً يبدو لي أن رنا تكتب حرفياً ما تسمع، لأنها تخجل أن تقول لأبي انتظر، لأعيد صياغة كلامك الغير منسق:

ـ أبي يقول لك أنتِ... أنتِ وكل أمورك الأخرى منذ وصولك كيف هي... وكيف حالك؟

ولكني أفهم لغة أبي جيداً:

أنتِ... المقصود بها أنت كفضة المتشظية التي نعرف... كيف حالك؟ وأنت الأخرى... كفضة العروس وزوجة محمد، كيف هي أحوالك؟

Twitter: @ketab_n

ـ عبير تسألك عن صداعك؟

(حسناً. . . الأسئلة كلها تقود للسؤال الرئيسي، مهما التف أهلي عليه).

ـ أبي يقول لك أيضاً صلاتك. . صلاتك. . هي وحدها من ستبعد عنك كل سوء!!

(سوء = لجين)

ـ زوجة عبدالله الثانية في بيت أهلها منذ أكثر من شهر. . . هل تصدقين أننا لم نشعر أنها ليست في شقتها فوق، وهو لم يخبرنا، عرفنا أنها في بيت أهلها من خالتها فقط. . !

(حسنا بالنسبة لي هذا أمر متوقع، لن أكتب هذا، فأمي لازالت تصر أن عبد الله سيئ الحظ في زيجاته، ولا تعترف أن ابنها غير متزن، وسيئ المعشر).

هم ينتظرون جوابا لسؤال يخنق حناجرهم، ولا يفكرون في سماع جوابي علناً فهو لن يغير ما بأنفسهم. هم فقط ينتظرون إحساسا حقيقيا، يطبطب على مخاوفهم.

ماذا أقول لهم؟

هم من عرفوني عارية أكثر من غيرهم، فأنا لازلت أخجل من أن أنزع ثيابي أمام محمد، ولازلت أصر أن يلمسني في العتمة.

أرسلت لهم صورة ونحن في طريقنا إلى (ميسافيردي)، قرب شجرة تنسج على أغصانها بعض الطيور. . . كانت تناهز الستمائة عام تقريباً، تاركةً ظلاً عميقاً في الأرض.

Twitter: @ketab_n

كنت قد استوقفت محمد، ليصورني وأنا أتكئ على مقود السيارة، لأخبر أهلي أنني قد بدأت دروس القيادة، وسأحصل على رخصتي قريباً، وذيلت الصورة بجواب أظنهم يجاهدون فضولهم لمعرفته أثناء إرسالهم لرسائلهم تلك:

(نعم، أظن أنها ما زالت تلازمني... لجين تخلف وراءها الكثير من الآثار، ولازلت أتجاهل أكبرها...)

لم أكتب لهم أن أكبر خطاياها هو اسم جون، والذي وجدتُه مكتوباً بخطي فوق نهدي الأيسر!

نعم أتجاهلها... أملاً أن تكون مثلي تعرف أن محمدا هو حربنا الأخيرة، والتي لن نكسب بعدها حربا لو خسرناه. ربما أتجاهلها حتى أحيط عنق محمد بقلادةِ أطفالٍ، تجعله يفكر مليا ومليا، قبل أن يعيدنا (أنا وهي) إلى أهلي...

نعم أتمنى إن شح الحظ وعثر علينا يوما، أن يجدنا في وضع لائق على الأقل، ونستحق فيه أن يُصغى إلينا.

Twitter: @ketab_n

حافة الغضة

فاطمة عبدالحميد

فيما بعد، وحين أصبح أمر خطبتي ومن ثم انفصالي عن خطيبي أمراً اعتيادياً، إذ سرعان ما يكتشف العريس أنني جسد لا يصلح للسكن، أصبح الأمر مجرد لعبة للتسلية.

بتنا نتراهن أنا وأخواتي على مدة استمرار أي خطبة، فتتجاوز بعضها ثلاثة أشهر وأخرى ثلاثة أسابيع، وأطولها صمدت حتى الشهر الخامس، ولكن وفي خطبتي هذه المرة كان الأمر مختلفاً، ولم تفز أي منا بالرهان.